المسافة بيننا شهيد

يامن نوباني

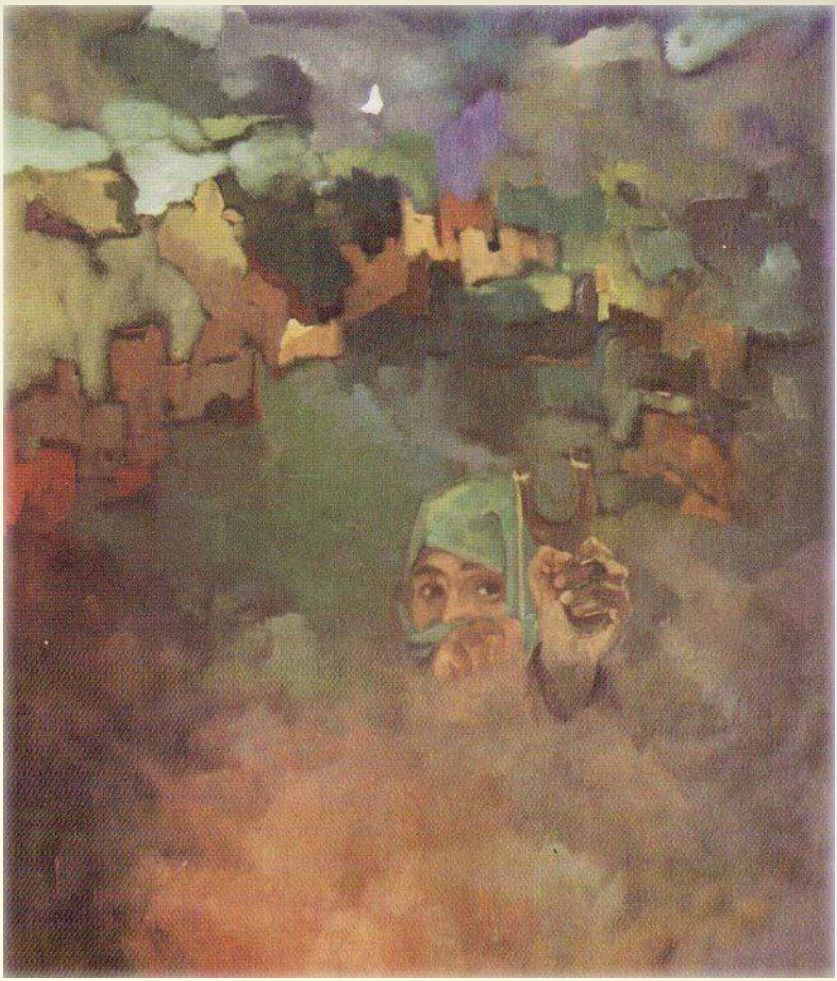

المسافة بيننا شهيد

2017

المسافة بيننا شهيد

يامن نوباني

المسافة بيننا شهيد
يامن نوباني / اللبن الشرقية _ فلسطين
الطبعة الثانية: ٢٠١٧
صورة الغلاف: الفنان التشكيلي الفلسطيني سليمان العلي
حقوق النشر محفوظة للمؤلف

الفهرس

طفولة وحب وجنود ٧

منعطفات اللوز ٢٧

المسافة بيننا شهيد ٥٥

دلال ومطر وسجن ٧١

بيننا أغنية ٩٧

الغياب و٥١ يوما من الحرب ١٠٥

الهبة الشعبية ١٢٥

زمن النقيفة ١٣٧

الطريق إلى البيت ١٥١

إهداء

إلى أختي أسيل نوباني . .

لا تقديم لهذا الكتاب . . فالشهداء لا يُقدمهم أحد
يُقدمون أنفسهم بأنفسهم، ويُقدمون الوطن.

وهنا أيضًا يندلق الحب بعفوية.

طفولة وحب وجنود

كانت أول مَرّة حَصَلتُ فيها على وردةٍ في حياتي، كان ذلك في مُنتصف التّسعينيات، كنتُ في التاسِعة منْ عُمرِي، أهدتني إياها طِفلةٌ في الثّامِنة منْ عُمرِها، حدثَ الجُرْمُ على مرحلتين، المرّة الأولى رَمتهَا أمامي ونحنُ في طريق المدرسة، كانت معها صديقتُها تتهامسان وتبتسِمان، وكان معي صديقي، كُنتُ خائفًا وأريدُها، خجولاً وأحُبُها، وفي المرّة الثّانِية زارت جدتي جدتَها، ولحُسنِ الحظْ أنّ جدتي كانت تأخُذُني معها إلى كلِ مكان تذهب إليه، يومها جاءتْ أمُ الطّفلة تحمل صينية الشاي ووزَعته، وحين وصلني الدورأخبرتْها جدتِي أنّي صغير ولا أشربُ الشاي في المساء، فأردفت جدتها قائلة لي: اذهَبْ والعَبْ مع البنت في غرفة أخرى، وهُنا وقعتِ الوردة عليَّ مرّة أخرى، ولأننا نرتبِكُ أمام الأشياء التي تحدُث لنا لأولِ مرّة، ارتبكتُ. ابتسمت لي الطفلة ومدت الوردة، وكسارق مددت يدي بسرعة مُذهلة وأخفيتها وراءَ ظهرِي، وحين خرجنا رميتُها على عتبةِ بيتِهم، منْ شِدّة ما أُصبت به منْ خوف. كنتُ أعتقدُ أنني لو عُدتُ بها إلى بيتِنَا وسألني أحدهم:

منْ أعطاك إيّاها؟ واعترفتُ؛ فإنّني سأتعرضُ للصّفع، الصّفع مِنْ أجلِ الحُب. فيما بعد حين أكبُر قليلاً، سأكتشِف أنّ لا أحدَ يصفعنَا حين نُحب أكثر مِنَ الذين نُحبهُم.

في حافِلة الأطفَال قبل أربعة وعشرين عاماً، كُنّا نجلِس في آخرِها، طفلٌ وطِفلة لِجارَيْن يشربَانِ القهوة كلَّ صَباح عند أحدِهِما، وكَأنّا أُعدِدْنا لنكون عاشِقين قبلَ أنْ نستمِع لأغنِية واحِدة، أو نَسمَع بشيء اسمُه «الحُب».

لم أكُنْ أحمل حقيبتَكِ عنكِ، حَملتُ حُبكِ فيما بعد، وأذكُر أنّكِ تُحِبين اللّبنَة، وأحِبُ الزّعتر. ونتقاسَم ما تُعطِينا إياه الجَدّات منْ المُلَبّس، ودائماً بطَعِم النّعنَع، ولا أراكِ بعد العَصْر تلعَبِين كُرة القَدَم، أو تُلاحِقين العصافير فوق اللّوز!

ما أذكرهُ منك، أنّكِ تجمعين أوراق العنب، فوق بعضها، كذكريات تضعينها في حقيبة صغيرة، وتدورين حول البيت كرقصة.

كبرت حقائبنا.. ذهبَ كُلٍ مِنّا إلى مدرستِه، كبرتْ حقيبتُكِ قليلاً، ولم يعُد بإمكانِي أنْ أمُدّ يدي إليها مُمازِحاً ومُهدِداً بسرقة ألوانِك المائيّة، ولا عُدتُ أدرْي فَطوركِ.

بعدَ أعوامٍ قليلة، غَطّيتِ شعرك، ونَسيتِ عادّة الجُلوس قليلاً على العتَبَة قبلَ الدُخُول إلى البيت، كُنّا نرتاح سَوياً هُناك، حتى أنّكُم مُنذُ عامَين أو ثلاثة أبْدَلتُم مُدخَلكُم، فصار الدُخول للبيت من الخَلف، من مكان النّافِذة الكبيرة.

هذا لا يُوجعُ كثيراً، ما يُوجِع هو اليد التي فقدتُها، حين كانت تُلّوح لي قبل أربعة وعشرين عاماً ببراءة، قائلةً: يلا سلام. كانت تَعنِي أكثر مِمَا تعنِيه الآن أقوى قِصّة حُبْ.

قبل الآن، كان الحب يبدأ من خلف السور، وينتهي من خلف السور، لم يكن يعرف به أحد، ربما أنت، والصديق الوحيد والعزيز جدا، وربما الخالة الصغيرة في السن التي كانت تمازحك، وتتسلى بأسرارك، وتحتاج إلى جرأة كبيرة لتهمس لها: هل رأيتها في العرس؟ حين كانت الأعراس حكراً على يوم الخميس. وكان يمكن أن ينتهي حبك عند أول شكوى شفوية تصل لوالدك! أو من النظرة الحادة للجارة التي تبعد عن بيتكم مقدار بيتين أو ثلاثة، بعد أن لاحظتَك أكثر من مرة تُبطئ بالحركة عند بيت الطفلة الخجولة، وأحياناً تعود مرتين بحجة أنك نسيت شيئاً في دكان الحارة.

وكان العيد المناسبة الكبرى لتراها مرتين في نهارٍ واحد، وفي أجمل طلّة.

هذه الحكايات انتهت الآن، وأخذت معها صعودك وهبوطك المُتكرر على درِج البيت، وأنت تُطّل في كل مرة من الشباك الذي يفصل الطابقين، ومن ألف طَلة تراها مرة واحدة قد لا تلاحظك فيها. مع ذلك كُنتَ سعيداً، لأنك رأيتها جيداً، أو حتى لمحتها، تسرق اللمحة السريعة وتعود بها لصديقك، أو اخوانك، أو حتى لنفسك، مغموراً بالبهجة «ياا لمحتها»، وتبتسم من داخلك.

حِينَ كُنّا أطفالاً لا نفهمْ مِنَ الحُبِ شيئاً، لم يكُنْ في اليّدِ إلا بنات الجيران، وكُنّا أكثر مِنهُنْ عدداً وحيويّة، كلُ أربعةٍ منّا يُحبون واحدة، وأحلاهُنّ يُحبُهَا عِشرون.

ودوماً كان هُناك طِفلة «مَجنونَة» هذه التي لا يُحبها أحد، لكنّها اليوم بألف خير!

وتملك عائلة..

ما زال بعضُنا مُتورّطًا بألسِنتِنا، لِسَببٍ صَغِيرٍ جداً: كان أكثرُنَا لُعِبَاً مَعهنْ، أو أنّ واحِدة مِنهُنْ نادتهُ مرتين!

كُنّا أطفالاً، كَبِرنَا، رأينا بناتاً أخرَيَات - بِيض وسُمر وطَويلات وقصيرات- في الجامِعات وأماكِنْ العمل والشّوارِع والمَقاهِي والحَفَلات والصُدَفْ.

وحدثَ لأغلبِنَا «الحُبْ»، الحُبُ الذي فيه الهاتِف والرّسائل النّصِيّة والمواعِيد والمَقاهِي وأعيادِ المِيلاد والهدايا، والصُور الشّخصِيّة.

ثم انتهى الحُبُ فجَأة، أقولُ فجأةً رُبما لأنّي لا أحبْ الأسباب التي يسُوقُها الآخرون لنا.

وبقيت في مسامِعنَا أسماءُ الأغنيّات التي كانت طِفلات الحارة يتقَصّدنَ إعلاءها لنسمَعَها حين نمرُ منْ أمامِ بيوتِهنَّ. وبقيت الورقة الصّغيرة التي كُتِبتْ عليها أسماؤنا بقلمِ رصاصٍ وبخطٍ ردِيءٍ وأُلقِيتْ أمامَنا على بعد ثلاثين مترا، أولّ مرَة.

في الثالثة عشر من عمري، كُنت أعتقد أن ابنة الجيران هي أجمل امرأة في الكون ثم كبرت أربع عشرة سنة أخرى، وظلت ابنة الجيران أجمل امرأة في الكون.

كنت طفلا أبني بيوتًا من الحصى مع طفلة من حارتنا، وفي إحدى المرات مر بنا والدها غاضبًا وهدم برجله ما بنيناه..

حين كبرنا، بدأنا نبني الحياة، بأفكار وأحاسيس، إلى أن علم والدها، الذي ضرب بيده على الطاولة وهدم ما بنيناه.

كتبت لها في صبانا:

وقوع بيتكم، جوار بيتنا، حظ سعيد للآخرين، الذين يذهبون إلى

عملهم دون نظرة أخرى أو نظرتين للخلف، والذين في صغرهم لم يتلصص عليهم آباؤهم، حين يعشقون فجأة مترين خلف البيت، ويجيبون الإجابة ذاتها على: ماذا تفعل خلف البيت؟

أسقي الخس.

- يُصبح الخس ضروريا ومُقدسا-

الذين لا يهرعون قبل الأشقاء الآخرين، لتناول صحن (العنب) من يد الأم، وإرساله لبيت الجيران، هم ذاتهم الذين لا يقوّون بعد أن جلس الجميع للإفطار على تناول الخبز الذي نسيته الأخت الكبرى على الرف.

وأمي الآن، بعد ثمانية وعشرين عاما من الحياة شريكة في حالة الفرار الجماعي لبنات حارتي، فهي تذهب لجميع حفلات وداع بنات الجيران، وتزغرد لهن وهن خارجات من بيوتهن، وتعود في المساء لتخبرني كم كُن جميلات.

أمي التي لا تدري أني أحبهن جميعهن، أمي التي نسيت أنها أفرغت الحارة منهن، دون أن تعود لي، لابنها الأعز، بواحدة! يا أمي: قولي لهن: ارجعن.

لا أُصدق يا أمي ما فَعَلتِهِ، لا أصدق أنكِ أغلقتِ بفعلتك نافذة الغرفة التي كانت تلتقطهن وهُن يقطفن ورق الدوالي، أو يمشين فوق أسطح البيوت.

وأنتِ تدركين جيداً، أن نافذتي هي قلبي.

رغم كل ذلك، فإن أكبر خطأ أرتكبه الآن، هو أن أحسب عُمر أمي بالسنين، في العام ١٩٦٣ أتت إلى الحياة المرأة التي أتت بي. بهدوء وبساطة وحب للضحك.

استُنفِذت كل المسميات يا أمي، فالشِعرُ كثير، وكل عاشق يسابق اللغة والزمن ليخترع لقباً لعشيقته. تشوهت ألقاب كثيرة!

لن أخترع لكِ مصطلحاً جديداً، فُطرنا منذ النطق الأول على: يما.

ولن أستغل الثاني والعشرين من كانون الثاني، لأصنع بطولة من نص، -البطولة التي بداخلنا أكبر من هذا كله-، البطولة التي نعرفها وحدنا جيداً.

كل لحظة وأنتِ راضية.

جيش بقولك جيش، بتفهمش انت. أدخل جوه.

كانت أول مرة أسمع فيها بهذا الاسم، وأول مرة أرى فيها الجنود، كان ذلك في نهاية العام ١٩٩٢، كانوا بين ستة إلى ثمانية جنود، على درج يصعد إلى سطح منزل جارنا أبي أيمن، ضخام ويحملون أسلحة، كانت أول مرة أرتعب فيها منهم، وما زلت. أعترف أنني من الذين يخافون الأسلحة والصراخ والعربدة، وأحب الابتسام والورد والشجر، أحب الطبيعة والهدوء.

أدخل البيت، حيث كنا نعيش في بيت جدي الصغير، وكان لنا غرفة واحدة، تقع في منتصفه، لكن غرفة جدة أبي أكثر بُعداً عن المدخل، أذهب اليها لأختبئ من الجيش، ثم أخرج بعد دقائق، أقف على النافذة أتردد طويلا قبل شقها، أريد أن أرى الجنود مرة أخرى، أن أرى أنهم رحلوا، لأنني خائف من أن ينتقلوا إلى بيتنا.

ثم بدأت التحذيرات من الأهل، الجنود يخطفون الأولاد الصغار، الجنود يقتلون الأولاد الصغار، يقطعونهم ويلقون بهم تحت الشجر وفي الوديان! لا أعلم سبباً لأن يُلقي أهلي وأهل الكثيرين في قلوبنا نحن الأطفال الصغار كل هذا الرعب من الجيش! لربما أرادوا مِنا الابتعاد عن طريقهم لئلا يضرونا أو يستغلونا. ووصل الأمر إلى أن يطلبوا منا أن لا نتناول الطوفي والملبس حين نجده في الخارج، لأن الجنود هم من ألقوه بعد أن حَشُوه بالسم أو المتفجرات.

مرة كنتُ ألعب وحدي قرب آخر بيوت الحارة وشاهدت طائرة اسرائيلية تمر بعلو منخفض، فركضت مسرعا إلى البيت وكأن أحدهم يلاحقني بسكين، مع أن البيت لا يبعد أكثر من مئة وعشرين مترا.

كانت سُمية أيضاً ابنة جيراننا، طفلة أصغر مني بعامين، وكانت تكبر معي، كان فقر أهلها أشد من فقرنا، وأخاف عليها من الجيش، وأطلب منها أن لا تتناول شيئاً عن الأرض، كان عندهم شجرة تفاح، تعرف أنّي أحب التفاح الصغير، وأخجل أن أطلب منها، فتعطيني كل عام بضع حبات.

قلتُ لها: بحبك نِتفِه، قالت: وبحبك نِتفِه، كبرنا وتبادلنا: بحبك للأبد، حبك عظيم، مجنون فيك.

وانتهينا.. كنا سعيدين بـ «النتفه» التي كانت تنبت على درج بيت جدها القديم في حارتنا الضيقة، قبل أن تفتح المدن والمقاهي ذراعيها لحبنا، والآن.. لا أقدر على العودة طفلاً، ولا امرأة تقبل أن أحبها نتفه.

كنا صغارا نجتمع بطرف الحارة على تلة اسمها «العرار»، نصنع طائرات ورقية، من بلاستيك وعيدان خشبية، وكان سامر أمهرنا بصنعها، وكان أكبر منا، فيضحك علينا، يبيعنا الطائرة الصغيرة بشيكلين، والطائرة الكبيرة بخمسة شواكل، وطبة الخيطان علينا، ويقول لنا: «جمعوا ذنب»، ذنب الطائرة يتكون أكياس بلاستيكية نمزقها ونلصقها في بعضها على شكل دناديش تتدلى من طرف الطائرة، وتساعد على توازنها، وفي صدر الطائرة عيدان من الخشب نسميها الميزان، وهو أهم شيء بالطائرة لأنه يُمسكها ويَحفظُ وُقوفها في الهواء.

كنا حين تطير طائرة إلى بعيد نقفز في الهواء ونصعد فوق الصخر ننادي عليها، ونقول لها: طيري يا طيارتنا بعيد.

بعد واحد وعشرين عاما، ستهبط طائرة أول صبية أحببتها في مطار دبي، سناء التي باعت هواها النقي هنا، لأجل الهواء المصطنع هناك! وباعت هواءها لي، اشتراه فلسطيني لم يندمج جيدا في فلسطين، وبرائحة الميرمية، وُلد في الخارج، وبقي بعيداً عن نكد الحياة هُنا، كانت كلما كلمتها عن شجرة أو طريق في الوطن تلتصق بي أكثر! وتقول أنها تحبني أكثر لأنني ابن هذه الأرض، ابن ما تبقى منها بأيدينا، قد يكون أكثر وطنية مني، ومن الذين ما زالوا في الوطن، لكنها تعشق الوطن بنكده وضيقه وأطفاله وضجيجهم، قالت لي يوماً: البُسطاء في الحب لا يحتاجون لأكثر من طريق ترابية. ثم اختارت شوارع دبي! حدثني أصدقاء كثر أن نهاية حبهم كانت برحيل معشوقاتهم إلى دبي، دبي التي تسرق حبيبات الفلسطينيين.

حين كنت أمشي معك أشعر أن أرصفة تُولد من اللحظة، يطلع شجر، ويتكون مقعد فوقه عاشقين، يمر بائع قهوة يُصفق بفناجينه، وتلعب طفلتان الحبلة.

حين كُنا هنا، نصنع الشارع والطريق بأرجلنا ومشاعرنا، لا الشوارع الجاهزة هناك! هناك حتى الحب يأتي جاهزاً مثل كل الأشياء.

مرة كُنّا نمشِي، توقَفتُ فجأة، و أوقفتُكِ، أخذتُ يدكِ، لِثلاثِ ثوانٍ

قلتُ: أحبك، ومَشيْنَا، مع ابتِسَامةٍ خفيفة مِنكِ، الابتِسَامة التي دوماً تتبعُ هذا المشهدْ، في كل حكايات الحُب.

نادِراً ما يحدُثْ أنْ يردُ الآخر: وأنا أحبك!، وقد يحدُثْ هذا لكنْ بعدَ الابتسامةِ بثلاثِ ثوانٍ.

وفي المرّةِ الثّانِية: أحبُكِ، وأنا.. ومَشينْا.

لو التقينا مرة أخرى في هذا العمر القصير، سأسألك سؤالا واحداً: ما الذنب الذي ارتكبته لتغادريني، وتغادري الوطن؟

وأدري جيداً أن لا ذنب لي، إلا الصدق والحب.

نحن لا نلوم أولئك الذين غادرونا بلا سبب، بعد أن حاولنا كثيراً أن لا تكون النهاية حزينة، أو أن نبقى معا، لكنهم قرروا في داخلهم أن هناك أجمل مِنا، وأننا لا نرتقي لمستواهم. مثل هؤلاء علينا أن نتركهم فورا بعد فاجعة وقوعهم في عشق آخرين، لن ينفع ندم أو استجداء، فقد قرروا أننا كُنا عابرين في حياتهم، رغم الحب الكبير الذي كان، هؤلاء لم يعودوا هؤلاء، أما نحن فبقينا.

بقينا البسطاء في الحب والكلام وكل شيء. ولم نكن نطلب منهم أكثر من مصارحتنا، وعلينا أن لا نجلد ذاتنا، وأن لا نقع في ندم طويل، فقد قدمنا للحب فوق طاقتنا، وهذا ما يحتاجه، يحتاج أن نمسكه بأسناننا وأيدينا وأقدامنا، وأن لا نتركه لأول ريح تهب. لكن علينا أن نتأكد أن الآخر لا يفتح يديه ليطير مع أول نسمة قد تمر بمحاذاته! نحن الذين حضناه يوماً كما لو أن الدنيا بأكملها لن تستطيع انتزاعه من بين أذرعنا.

مرت ثلاثة أعوام على ذلك الحب، لم أغادره تماما، ما زالت ضحكة سناء ومشيتها في قلبي، لأنني أنتمي للنوع الذي لا ينسى بسهولة تامة، هذا ما قلته لها، وهذا ما لم تفهمه! أنا الأول في الحب، والآخر في النسيان.

نيسان ٢٠١٤، جامعة بيرزيت، كلية الآداب، القاعة ٢١٣، هكذا ردد على مسامعي طارق، حين هاتفني لأشارك في لوز أخضر، الملتقى الشهري لأفضل ثلاثة نصوص منشورة في مجلة فلسطين الشباب، كانت الثانية لي. فالأولى كان أول مرة في حياتي أشارك فيها بنشاط ثقافي، حين نشرت نصاً. وكان ذلك بمشاركة يارا من بيت لحم، ومنسق اللقاء، وهو شاب مقدسي، حيث نقدت أسماء نصوصنا، ووجهت لنا النصائح، وكان هناك مصور وضيف أتى مع أسماء وظل يبتسم بصمت طوال جلسة النقاش.

كان الحضور الفعلي هو شخص واحد! شخص واحد في أول نشاط ثقافي أشارك به! كم بدا هذا مُخيفاً، أين الذين دعوتهم؟ أين أصدقائي؟ أين الذين يُعجبهم حرفي، وفكرتي، ومزاجي الكتابي؟.

شخص واحد في أول تجربة إلقاء لي أمام الجمهور، يُدعى مجدي أو ابراهيم، نسيت اسمه! قال إنه لا يُفوت لقاءات لوز أخضر، وأتى من إحدى قرى رام الله، أي أنه لم يأتِ لأجلي أيضا، كان حياديا لحظة إلقائي ويارا نصوصنا.. فقط يقرأ ويبتسم ويعطي ملاحظة صغيرة وهامشية، ثم يسكت.

هكذا بدأت، بواحد.

وبعد عمر أكتشف فعلاً أننا نكتب ليقرأنا واحد، واحد مختلف عن كل الذين سيحبون ما نكتب، والذين سيكرهون، والفرحون، والمنتقدون، والمحايدون، واحد فقط سيشعر أننا كتبناه. واحد لا نعرفه سيقول: يا الله من أين عرف كل هذا عني.

كانت بسمة أجمل فتاة في الجامعة، هكذا قالت لي آسيا، صديقتها التي التقيتها ثلاثين مرة، وتشاجرنا ستين! لكننا بقينا نقيين حتى بعد الفراق الذي انتهى بمشاجرة أيضا، لا أدري ربما الأمر تصديق لمقولة ايطالية: «الذي نتشاجر معه كل يوم لا نستطيع الاستغناء عنه».

بقينا نغضب كل مرة ونقترب كل مرة أكثر، لم نبتعد يوما، إلى أن تيقنت أنني لم أحبها بالشكل الكافي، فقررت أن تهرب بجلدها وقلبها قبل أن تتمزق أكثر، في الأشهر الأولى لرحيلها أزعجني فراقها، رغم أن حبي لها كان باهتا، لكن شيئاً ما نقصني، خاصة تلك النظرة التي كانت فيها تغمز باليسرى حين تكون على بُعد ثلاثين سم في طريقها إليّ، تغمز وتسلم بأصابعها النحيفة والصغيرة والناعمة، فأمازحها بأن أُبقي اصبعها الصغير بين أصابعي، فتغمز ثانية، وتبتسم، ويغمرها شيء لا أعرفه، ربما كان دفء الأنثى حين تُحب بصدقٍ كبير.

مرة خدشتها بقوة في يدها برأس القلم، بكت، فمسحتُ دمعتها، فأتاها الشعور ذاته ، وصارت في كل لقاء تتحرش بي وأنا أكتب كي أخدشها ثانية، لتبكي، ولأمسح.

في ذلك اللقاء تُهتُ عن القاعة، لم يخطر ببالي أن أسأل أحدا، وكان ثمة وقت للبدء، كنت أعلم أنها ستجيء، لأنها وعدتني بذلك قبل أيام، لكنها لم تعلم أني سأنتظرها على مدخل بناية الآداب لتدلني على قاعة اللقاء، كما ستدلني لاحقاً على تفاصيل صغيرة في الشهداء والوطن، قبل الحادية عشر بدقائق وَقَفَت على بُعد مني بمترين صبية رائعة، تبدو هي، اقتربت أكثر، تبسمت وصافحتني، وسألتني لِمَ لَم أدخل؟ قلت دخلت، لكني خرجت لأدخن سيجارة. دخلنا سوية، كان في القاعة ما يقرب من عشرين شخص، بعد

ساعة ونصف انتهى اللقاء، كان جيدا، خرجنا، مشينا سوية لخمس دقائق ثم افترقنا، بعد أن تبادلنا أرقام الهواتف وتواعدنا على لقاءات أطول.

مع ارتقاء كل شهيد كانت تقترب مني، وأقترب منها. هكذا بدأت علاقتنا، وهكذا صارت المسافة بيننا شهيد.

في رمضان ٢٠١٥ قام الاحتلال باستصدار عشرات الآلاف من التصاريح لأهل الضفة الغربية للدخول إلى المناطق المحتلة عام ٤٨، وأسماها بادرة حسن نية! أي احتلال وقح هذا، الذي يمنع أجيالاً كاملة من بلادها، وحين يقرر ذلك لبضع آلاف فإنه يضع نفسه في مكان الذي يحنو علينا! مرة واحدة يا الله، يا الله صار حقنا جميلة الغرباء! تُعطى التصاريح بالعادة بحسب رضى الاحتلال عنك، أي أن يكون سجلك لديهم خالٍ من الخطأ بحقهم، يريدونك هادئا ومسالما، ولم أكن! وأحيانا تُعطى بحسب أمزجتهم، أشقائي ستة، أعطوا ثلاثة ورفضوا ثلاثة، لم أطلب من الذين ذهبوا أي شيء، لأنيّ لا أحس سوى بأنهم سبقوني، وأنيّ ذاهب يوماً ما إلى حيفا. سبقتني كُتبي إليها، الكتابة لا تُعيدني لحيفا، لكن تصل هيّ، ليد امرأة، ليد رجل، لرف مكتبة مدرسية، لحجرٍ هناك! تعرف الطريق أكثر مني، وتنمو وحدها في الممرات الضيقة، تحت الخروب واللوز اليابس، وتقول لي: لا تقلق، أنوب عنك.

وذهبتِ أنتِ أيضا يا بسمة، مع أنهم لا يعرفون كم في قلبك من شراسة وعنفوان ضدهم، وهاتفتني من هناك، قلت يومها: تعرف وين أنا؟ قلت: عند بلدنا؟ ضحكتِ وقلت لا لا .. أنا في .. لا، لازم تعرف بدون ما أحكيلك، شم وين أنا، وأطلقتِ هاتفك للهواء، لكن لم يخطر ببالي أنك هُناك، مشيتِ قليلاً وقلتِ: اعرف من خطواتي؟ ولم أعرف.. ضربتِ بيدك على حائط بيت مهجور وقلتِ: أعرفت

هذا الصوت؟ ولم أعرف..

فصرختِ: أنا في حيفاااا.

أنتِ صرختِ وأنا سكت. تكونت دمعه في عيني، سقطت، تكونت ثانية وثالثة وسابعة، وسقطن. نعم أبكي على حيفا، أنا الذي لا يبكي إلا نادراً، أبكي إن مات أحد، أي أحد، في أي مكان من العالم، أحيانا على طائر جائع أو حيوان دهسته سيارة وألقاه المارة طرف الشارع. أكره الدم! أكره أن يختنق أحد، ما دمنا نعيش في عالم كبير وواسع تملؤه الأشجار والغابات والمساحات الخضراء والمياه، لماذا نُصر على أن نخنق انسان أو شعب أو مذهب.

ترسل لي صبية لا أعرفها، لكنها تعرف جنوني بحيفا، عبر الفيسبوك، صورا لجبل الكرمل وحيفا، صورا من كل مكان في حيفا، لكنني لا أعرف حيفا! أقسى نتائج نكبة ١٩٤٨: أين هذه الصورة؟

حين تستوقفك صور مدن وتلال وجبال وسهول ووديان وأشجار وطرق وينابيع وحجارة تراها للمرة الأولى لبلاد كانت بلادك.

أهرب من الصور، أقول إنني رأيتها، لكنني في الحقيقة لمحتها بسرعة، فالتحديق يقهر.

وأظل أكتب:

المطر يبدأ من حيفا، كما تقول الأرصاد الجوية

ثم يمتد..

شكرا حيفا، وصل المطر

شكرا يا الله على حيفا.

..

سأقول لسائق سيارة الأجرة، الذي سيقودني للمرة الأولى لحيفا: لم أرَ أجمل من أبي سواك.

..

سأقول لآخر امرأة سأراها وأنا أغادر حيفا: لم أرَ أجمل من أمي سواكِ.

تقهرني مواقف بسيطة، قصص عادية تحدث لكل فلسطيني، صديقي من مخيم عايده شاب لم يتجاوز ال٢٣ عاما، هذه أيضا من نتائج النكبة، النكبة التي وقعت قبل سبعة وستين عام. النكبة التي تمنعنا من استخدام أقرب الجمل الأدبية لقلوبنا وأحاسيسنا. النكبة التي تسري فينا جيلاً بعد جيل. يكتب منذ زمن طويل أشياء كثيرة وجميلة، لكنه إلى اليوم لا يستطيع أن يكتب نصاً يبدأ بجملة: «وأنا عائد إلى البيت».

فبيتهم في المالحة.

حين تعودين من حيفا، نلتقي في رام الله نمشي في شارع المعرض، التفرع البسيط من شارع رُكب، يبدأ من جزيرة في منتصف الشارع، يتفرع للأعلى والأمام مُكملا طريقه إلى رام الله التحتى، واليسار حيث نزلة البريد، نزلة الأشجار الطويلة عنيفة الجمال، أو يدور على نفسه عائداً من الجزيرة بمنتصف ركب إلى ميدان الساعة، نمشي وتخبريني عن رحلتك إلى الداخل المحتل، تقولين: حين وصلت الجولان، اقشعر بدني من أسماء اليافطات باللغة العبرية، بلادنا ومناطقنا، وجوارنا العربي، القنيطرة أمامي، أرى مبانٍ ومآذن سورية! جبال لبنان، أمشي الآن في حيفا، دون دليل سياحي، معي «المتشائل» فأنا أصدق إميل حبيبي أكثر من كل هذا العمران والتغيير، أبحث في واد النسناس ما كتبه إميل، أبحث عني وآبائي وأجدادي، فأرانا رغم كل هذا!

أسألك: ما معنى هذا؟ تقولين: الزفت، الاحتلال! يسمعنا مارة وينظرون إلينا بغرابة ظناً أنكِ شتمتني أنا، نضحك وتقتربين إليَّ هامسة: اعترفت باحتلالكَ مُنذ نَفَسك الأول على يدي.

على ميدان الساعة جلسنا في مقهى ع.ج، لأول مرة ندخله، اعتقدتِ أنه عصري وسُعدت لأنه عتيق، بل وفارغ، أكره المقاهي الممتلئة، بينما أنتِ تحبينها، جلسنا في ساحته الأمامية، أشجار مهملة ومقاعد متسخة، وأرض ملأى بأوراق الشجر، وبدايات الخريف، كُنا الوحيدين في المقهى! هل ترك العشاق المكان لنا وانصرفوا لأمكنة أجمل؟ أم أن القدر رتب لنا اللقاء بعيداً عن أعين الناس وملاحظاتهم الدقيقة! جاء النادل، يبدو في الخمسينات من عمره، له لحية وضخم الجثة! لا يليق به أن يكون نادلاً في مقهى يحتاج شبابا يبتسمون دوما ويتحركون بعفوية وخفة، ويمازحون

الزبائن، طلبنا شاياً، لم يعجبني وأعجبك، وقف النادل الوحيد مثلنا، يُصلي لله الواحد، فأمسكت يدك المُطمئنة من تحت الطاولة حتى سَلَم عن اليمين.

في طريق عودتي إلى قريتي اقتحم الاحتلال سوبر ماركت أبو شكري، في عين يبرود شرق رام الله، للاستيلاء على كاميرات المراقبة بعد تعرض مستوطنين لإطلاق نار على بوابة مستوطنة عوفرا. في فوضى احتجازنا في الشارع تذكرت ليلة من ليالي صيف ٢٠٠٩ حين كُنا نشرب قهوة في الحارة، أعددتها أنا، لم تّرُق لابن جيراننا محمد، قائلا: هاي بتسميها قهوة، روح جرب قهوة أبو شكري، أزكى قهوة في الضفة.

يقع سوبر ماركت أبو شكري في وسط القرية، مقابل مسجدها، مررت به كثيراً دون أن أشربها، لكني في كل مرة كُنت ألتقط ببصري ماكنة القهوة على بابه.

بعد أن تتخطاه بأمتار قليلة، وتتجه يميناً -نزول-، يصادفك بعد ثلاثين متراً على اليمين بيت قديم مُدهش خاصة في تقابل الدرجين على مدخله، تمشي عشرة أمتار أخرى، على اليسار بيت آخر أكثر قدما، وأكثر دهشة، على زاويته ترتفع دالية عنب ضعيفة النمو، أو أنها تتسلق لتلك الزاوية الأمامية من خلفه، البيت يبدو مهجوراً ومغلقاً، صورته أكثر من مرة على هاتفي واحتفظت بصوره، كُلما أعادني حاجز على بيت إيل أو عين سينيا أو عطارة، عُدت لأمر به، نوافذه وبابيه يملكان لون أزرق عتيق، يكاد يختفي من البلاد.

حين وصلت حارتنا، متأخراً ثلاث ساعات عن الموعد الطبيعي، وجدت سهرة شبابية لعرس أحد شبابنا، كان المغني الذي أحياها يردد: الله ينصر صدام حسين. فيرد الشبان بالصفير والتصفيق الحار.

ما زالت الأعراس في الريف الفلسطيني تحمل نكهة الحنين لمن وقفوا في صف القضية. الغريب ليس التغني بصدام، فصدام مات، إنما بالأمل به ولو في أغنية، ربما يعود ذلك إلى الصورة النمطية التي تشكلت لصدام في أذهان الفلسطينيين، فصوره ما زالت في بيوتهم ومضافاتهم وشوارعهم وأسماء أطفالهم.

في بيتنا صورة، في بيوت الآخرين صور وبراويز خطت عليها في بعض الأحيان عبارات وطنية، أهمها: عاشت فلسطين، عاش العراق. وهي العبارة التي كان يرددها صدام في نهاية خطاباته.

في بيت جيراننا تخرج طالب من جامعة عراقية في بغداد، فصنع في بيته قطعة قماش كبيرة الحجم مزخرف عليها صدام، وفي بيوت الأصدقاء من مدن أخرى وجدت صورا لصدام.

هي حالة عامة أوجدها صدام في قلوب الفلسطينيين، خاصة كبار العمر، حيث وضعت جدتي يدها على خدها وبكته حين شاهدت على الجزيرة مشنقته في الأضحى الحزين، وكان حديث أهل القرية والقرى والمدن الفلسطينية بأسرها، وقبل أيام تحدثت لصاحب أشهى مرطبات في وسط نابلس، واسمها «مرطبات العراقي»، حيث قال لي أن والده عمل في هذه المهنة في العراق في خمسينات وستينات القرن الماضي، في كل ناحية من محله صور صدام حسين وبغداد.

في نهايات العام ٢٠٠٠، حيث كانت الانتفاضة في بداية اشتعالها، على طريق المدرسة كُنا نغني في وجوه المستوطنين والجنود مرددين اسم صدام حسين، رغم صغر سننا، وعدم فهمنا شيء في السياسة أو حتى الوطنية، وربما إلى اليوم لم نفهم شيئاً، لكن لو قُدِر لنا العودة مرة ثانية لغنينا مجدداً بالطريقة ذاتها.

وفي المسيرات في المدن الكبرى كانت ترفع صور صدام، وأعلام العراق، خاصة أعوام ٢٠٠٠، ٢٠٠١.

وبعيداً عن قضايا الدكتاتورية والمذابح والكيماوي وغيرها، فصدام حسين ما زال الحالة العربية الوحيدة التي يُغَني لها الفلسطيني، وتكاد الحالات والدول الأخرى معدومة الذكر، سوى حسن نصر الله وحزبه، حيث يُغنى لهما لكن دون الوصول لمرتبة العراق وصدام.

في منتصف الحفل يتوقف المغني دقائق معدودة ويسمون ذلك: فترة استراحة وأخذ نفس. يبدأ فيها المغني الشعبي بإلقاء مواويل للعراق وصدام حسين، مما يُثير حَماسة المحتفلين ويُشعرهم من الداخل بشيء من النشوة.

كل هذا يجري رغم موت صدام، وتراجع الحالة الثورية، وانتهاء زمن الأغنية الوطنية الملتهبة، تدخل مقهى أو مطعم فتجد صورة صدام، تدخل شارع فتجد نصبا لصدام -كما هو حال نصب وسط بيرزيت-، تدخل بيتا فتجد صدام، تدخل حارة فتجد بين أطفالها من اسمه صدام.

منعطفات اللوز

في السنوات الأولى للانتفاضة الثانية، كانت سيارة الفورد، الوسيلة الأهم لتنقل الناس بين الحواجز في الضفة الغربية -التي وصلت في بعض الظروف إلى ٦٠٠ حاجز- لقدرتها على المشي في الطرق الوعرة، وحمل أعداد إضافية من الركاب.

في سيارة الفورد هناك من سبعة إلى عشرة فلسطينيين، لكل واحدٍ منهم اسم وعمر و مدينة، ويحمل حقيبة. منهم من يحمل حقيبة سفر، حقيبة كتب جامعيه، حقيبة عياده، حقيبة ملابس، حقيبة أدوية ومراجعات طبيه، حقيبة مبيعات كنباتات جبليه وعسل وبهارات وما شابه، ومنهم خالي اليدين، يحمل همه! قلبه أكبر حقائبه.

إننا مولعون بالحقائب!

نحملُ أي شيء مهما كانت أهميته ونمشي به لمسافات بعيدة، وكأننا نُعد أنفسنا لرحيلٍ قصير، ربما أقصر من الرحيل الكبير الذي قالوا لنا أنه لثلاثة أيام فقط. وإلى الآن لم ينتهِ!

صباح الفلسطيني مختلف تماما عن صباحات الآخرين. فدوماً يلزمُه حقيبة! حتى ذلك الذي تراه يخرج من بيته دون حقيبة، لربما خسرها في ظرف آخر.

لقد تحولنا الى شعب من الحقائب، مع أننا لا نملك مطاراً واحدا.

في ظرفنا الفلسطيني لا بد أن يكون لك في كل مدينة وقرية ومخيم صديق، صديق للساعات الطارئة، وللمبيت إذا استدعى الأمر، فأنت لا تعرف متى يُغلق حاجز، أو متى يُنصب حاجز، كانت أجمل مقلوبة، مقلوبة أم علاء في كفر دان، تذوقتها ثماني مرات، عدا عن أني أحب جنين، مدينتك السابقة يا بسمة، بجوها الريفي الهادئ، لكنها ليست أكثر هدوءا وريفية من سلفيت، جارتي الصغيرة، يفصلنا في منتصف المسافة تماما نبع ماء اسمه «عين الشاعر»، تخيلي أن يكون الفاصل بينك وبين الآخرين نبع ماء! ماء نقي وصافي بين صخرتين، بضع لوزات وحَنون أحمر كثيف، بينك وبين المدينة التي ورطتك بثلاث نساء، المدينة التي تحيطك بالزيتون، في كل المداخل والمخارج تجد زيتوناً على الجانبين، المدينة الوحيدة في العالم التي تنفصل فيها الشوارع بواسطة أشجار الزيتون.

في بيت لحم لا أحب أن ينتظرني أحد، أو أنتظر أحد، أو يهاتفني هناك أحد، ولا أن يمشي قربي أحد.. أدفع مقدماً بدل الراكب الذي كان من المفترض أن يجلس لجانبي لأظل وحدي.. أجلس دوماً على الجهة اليسرى، لا أشتهي أن يشاركني أحد تفاصيل المدينة أو أن يُصاب بالقلق إن تأخرت في الوصول أو الرجوع، فلستُ خائفاً في مدينة الاطمئنان! أحبها لي وحدي، أن أستنشقها نافذة نافذة.

بيت لحم هي المدينة الوحيدة التي تستحق أن تمشيها وحيداً.

في مارس/آذار ٢٠١٥ حملت نفسي وما يقارب ٢ كيلو لوز أخضر، مُتجها إلى بيت لحم، نصف اللوز لصديقات من القدس، والنصف الآخر لنضال، أعترفُ أنني ما زِلتُ طِفلاً، وأنني أشعرُ بالخوفِ بعيداً عنْ البيت، وأنني هَربتُ منْ جمالِ بيت لحم، ولُطفِ بيت جالا، والأصدقاء والصّديقات الذين أعرِفهمْ وأولئك الذين التَقيتُهم للمرّة الأولى.

هربتُ إلى جُدْرانِي الخاصّة وبابِ بيتي، وضحكتُ على «بتير» التي جئتُ لأجلِها، مع أنّ كلَ شيء كان مُعدّاً للاستمتاع بجمالها الأخاذ. استيقظتُ ست مرات في أثناء اللّيل، وسجلتُها بالثواني، كما هي عادتِي، مع أنّي نِمتُ مُتأخِراً بعض الشيء، لكني عند ال٥:٣٥ صحوتُ للمرّةِ الأخيرة لأشهدَ الفجر والنّهار منْ لحظتِه الأولى، صحيح أنّ النتنة «هار حوما» كانت قُبالتِي لحظة الفرْكَة الأولى لعينِي، لكنّي رأيتُها ذلك الحرْش الذي كان قبل العام ١٩٩٩ وما زالَ وسيبقى «جبل أبو غنيم».

خُنتُ بتير، قلتُ لنِضال: سنبقى قليلاً في بيت لحم ثم سأغادِر. ولم تنفعْ كلُ المُحاولات لِئلا تقعْ الخِيانَة!

ولحُسنِ حظِي، السّيىء في أحيانٍ كثيرة، أنّي آخر راكب منْ بيت لحم لرام الله، ثم آخرْ راكِب منْ رام الله لنابلس.. وهذه منْ النّوادِر! وكأنّ شيءٌ ما تعاطفَ معي لأصلْ سَرِيعاً، دون حتى حاجِز واحدْ يسأل مِنْ أينَ أتيت؟ إلى أنت ذاهِب؟

حتى الرُّكاب كانوا لطِيفين، ويرُدون السَّلام.

يعتقدُ الأصدقاء الذين يستقبلونَنِي في بيوتِهم أنّ شيئاً ما لمْ يُعجِبُنِي كي أُصرّ على أنْ لا أبيتَ عندَهُم، وأحياناً يتفقدُون أنفسَهُم خِشيةَ أنْ يكونوا وقعُوا في التّقصِير، أتذّكرُ وضّاح، حين كان يقول لي:

طيب ليش مالها عرّابة؟ الوقت تأخّر نام عندِي؟ بلدكُم بعيدة بتطلَع بكرة الصُبح، أنا بوصلك.

لكنّ صِدْقاً أنّ السّبب واحد وواضِح، هو أنّي لا أستطيعُ الابتِعاد كثيراً عنْ الهواء الذي يخُصُنِي، والأشياء البسيطة التي لِي.

قد يكونُ اليوم واليومان شيئاً تافِهاً مع الذين لم يَروا البِلاد أبداً، ومع الذين خرجُوا مُنذُ سبعين عاماً وما زالوا يحلمُون ببيوتِهم وعَتباتِهم ودالِيةَ العِنبْ!

وأنا منْ الذين ضَجُوا جدا من البلاد، ويُكثِرون منْ الحديثْ عنْ الرّحِيلْ عنهَا، لكني أدرك جيداً أنّها لحظاتْ وأيامَ وحتى سنوات منْ الانفعَال والغضب لا أكثر! وأؤمِنْ جيداً أنّ البِلاد بقتامتها وسوادِهِا بيضاء فيِ داخِلي وحُلوة. لكنها تدفعك أحياناً للعمل بمقولة محمد الماغوط: كل ما تراه وتسمعه وتلمسه وتتنشقه وتتذوقه

وما تذكره وتنتظره وينتظرك

يدعوك للرحيل والفرار ولو بثيابك الداخلية.

أنا منْ الذين ضَجّوا جِداً منْ البِلاد، ومنْ حياةِ جيلٍ وأجيالٍ عانتْ احتِلالينْ! واحِد اسرائيلي وآخرْ فلسطِيني، الاسرائيلي ليس بِحاجة لعمليةِ شرح.

أمّا الفلسطيني فهو في هذا التّناحِر والتّفتُتْ الذي لم يخسَرْ بسبِبه إلا نحن، الشّباب، في الأخبار إما أن تقرأ رام الله أو تقرأ غزة، رغم أن القضية هي القدس. وهو أيضاً أنْ تعمل ب١٠٠٠ شيكل فقط، وأن تعملْ بِما لا يليقْ بك، وأنّ يكون جارُكَ حاقِدْ، وأنْ تخسَرْ فلسطينية أحببتَها بصْدق، وأنْ تخسَر أمتار منْ أرضِك لأنّ قريب لك لا يعرفْ الله! وأنّ يحسدُك الأصدقاء ويكرَهونَك على نجاحِك

في عملِك أو هِوايتِك، وأنْ يكون لديك أخْ يهوى افتِعال المشاكِل لعائلتِك المُسَالَمَة، وأنْ يسرقْ زيتونَك أو يحرِقْ قمحَك منْ يُثيرون الفُتنَ، ومِنْ النّفاق والمَصالِح .... إلخ. هذا كله احتِلال فلسطِيني فلسطِيني، احتِلال لك ولمزاجِك وهواياتِك وحياتك.

بالتّأكيد أنّه احتِلال قاسٍ، لكنّهُ سُنّة الحياة، لذا بدأتُ منذْ فترة قريبة لا أتدّخلْ في شيء، وأعودُ تدريجِياً إلى هذا الرّيف المُلوثْ بالاحتِلال الاسرائيلِي، لكنّي ما زلتُ أراهُ لي، شجرة الزّيتون على باب المُستوطَنةِ لي، والهواء فوق البيوت القُرمَيدية لي، والأرضْ منْ تحتِهم لي. هذا ما أراه وما أريدْ رؤيتِه، يمُرُ صاحِبْ القُبّعَة الصّغِيرة «الكيباه» عنْ الزّيتونة فترفضُه مُخيلتِي وترسُمْ سَرِيعا صورة القُمبَاز والعِقال، هذا زيتونَنا، هذا جَدّي، هذا وطَنِي..

مرة أخرى تعود الجرافات، يا الله على هذه الجرافات التي لا تهدأ عن محاولات اقتلاعنا، مع أننا نردد بالشهداء والجرحى والأسرى والمبعدين: لن نرحل! هذه المرة تُخلع جذورنا في بئر عونه ببيت جالا، رأيتها في الأخبار تحمل الشجرة بأكملها وترميها جانبا ميتة، يا الله ما أوحش البلاد حين تموت زيتونة!

لا أدري لِمَ لا يرفض جذع الزيتونة المزروع في قاع الأرض منذ ألف عام، الخلع، لِمَ لا يحرق الجرافة المصنوعة في العام ٢٠١٥، أم أنه حكم الجديد على القديم، بمحوه وسلبه. وهذا يُشبه تماماً خلع البيوت القديمة وزرع البيوت الجديدة والأنيقة مكانها، كان في حارتنا بيت من طابقين، تسكنه عجوز دائما ترتدي الأبيض المطرز بخيوط حمراء، وعلى رأسها عصبة الفلسطينيات القديمات، تحمل مسبحة طويلة وعصا وتجلس على عتبتيه الوحيدتين مثلها، مبني منذ ١١٧ عام، على طراز قديم وجميل، نوافذ خشبية زرقاء، وبلاط من الحجم الكبير مربع ومزركش،

وفي وسط صالة الضيوف بلاطة دائرية تحمل ألوانا ورسوما كثيرة، حتى التوت والرمان والليمون خلف البيوت تم خلعه، لو أنهم فقط تركوا لنا نوافذه!

قبل أسابيع هدموا طابون أم أنور، شابان ينقلان حجارته القديمة إلى سيارة شحن، ويبتسمان، توقفت قبالتهما صامتاً لدقيقتين، مرت خلالهما في خيالي سنوات طويلة، سنوات من الطفولة والشقاء، هُنا كُنا نختبئ من المطر، في آخر محطة على طريق المدرسة، أنا وزياد، وأحيانا فادي ورائد، فهما كانا يعداننا عدوين، يُصالحانا شهراً ويقاطعانا شهراً، كُنا أطفالًا حينها، ونظن أن للعالم مشاكله الصغيرة، كمشاكلنا! لم نكن نعلم بالحروب الطويلة وبالحب الكبير.

كانت زاوية الطابون تتكأ على جذع ضخم لشجرة بلوط، لا أدري متى كان ذلك، لكني وُلدت وهي موجودة، حين هزها بعنف أحدهما، انهالت الحجارة من كل ناحية، وصار الطابون في الأرض! لم تكن تلك حجارته بل كانت زيت الزيتون والزعتر وصواني الباذنجان والكوسا والباميا والبطاطا المشوية التي كنا نتذوقها في صبانا.

عُدت من بيت لحم، لأجد كل شيء يتعرض للريح والبرد والمطر الغزير، كل شيء يتأرجح ويتبدل ويتطاير، كل شيء الآن غامض ومُشوش ومجنون، ما عدا نِوّار اللوز، هادئ، واضح جداً، وباقٍ. مازحتني مرة صبية من الطيبة، بأن أذهب للعيش عندهم، فقلت: ليس لديكم لوز. قالت: نزرع لك لوز؟ قلت: اللوز لا يُزرع! اللوز يطلع.

يقول جَارِي مُنذِر: «حارتُنا أكثرُ مكانٍ آمِنْ في العَالَم»، وأضيفُ على ما قَال: لا يعنِي هذا أنّ الحْارّة تعيشُ فيها المَلائكَة، بل أُناسٌ عادِيون لهُم أخطاؤهُم، وصُراخُهم، وكُرهُهم، ومزاجاتِهم،

ونِزاعاتُهم، وبُخلهم، وغباؤهم، وقَذارتُهم، نعم فيهِم كل هذه الأشياء، لكنّهَا ليستْ طِباعَهم، جميعُها تحدُثُ لهم ومعهم بالصُدْفَة! حالات قليلة وفردِية ومُؤقتَة، قد لا يصنعون لك الخير، لكنّهُم أبداً لنْ يصنعوا لك الشّرْ، مهما برزَت صِفاتٌ سيئة فِيهم، فإنّ الطّيبةَ تُعيدُهم، «يردُهُم أصلَهُم» حارة بسيطة جداً، تصحُو مُبكراً، يتبادلُ فيها النّاسُ قهوةَ الصّباح طَوالَ اليوم، تستمعُ للأخبارِ وتُراقبُ المُستوطنات التي تزحفُ نحوَها، صِبيانِها وصبایاها، هادِئون جداً، يموتُ منهَا في العامِ شخصان، ويولدُ عشرة، ولا يخرجون للعالَمْ دونَ صَبغتِها، تصبُغُهم بالبساطةِ والطيبة. قد أكون أكثر إنسان لا يُحب الخروج من حارته، من هذه البيوت العادية والجيران العاديون، فبعض التعود مُدهش.

الجميل في هذه القرية وبالأخص حارتنا أن كل البيوت تزرع العنب قبل عتبة البيت، في طفولتنا كان العنب سرقتنا الشهية، مقياس صداقاتنا، وسببًا لطيفًا لأحب كل بيوت الجيران.

حتى في مشاكلنا التافهة والحرد الذي كان يؤدي إلى انقطاع الكلام بيننا، كان العنب سيداً، كان حلوان المصالحة في ذلك الزمن، ونرمي بعضنا مزاحاً بحباته.

كنا وما زلنا حارة تتزاور بالعنب، وتنادي فيها عجوز أطفالًا يلهون، لتهديهم عنبا.

في حارتنا تجتمع النسوة على عتبة بيت احداهن، أو على طرف الطريق، يفرطن سوية الملوخية، ويتحدثن في كل قضايا الأمة، يقدمن القهوة لتاجر الخضرة الذي يأتي من جنين على الأغلب، يشرب قهوته على الواقف، بينما يستفزه بضع أطفال يتسلقون سيارته، يصرخ فيهم، تصرخن النسوة فيهم، ولا يذهبون.

الجارات يصنعنَ حلوى شهيّة، ليست مُغلّفة، لا تحملُ اسماً، لا ترتدي سِوى نكهتها! وتظّل أجمل من كل أسماء الحلوى، الطويلة والقصيرة والمُرّكبة والقادمة من بعيد، والقادمة من قريب، ومن تلك التي تحملُ علامة تجارية عريقة وعُمراً بعيداً وأسواق لا تنتهي.. يكفيها أنّها من أيدٍ فلسطينية.

في أيلول ٢٠١٥ ماتت جارتنا غنيمة، في الستينات من عمرها، لم يكن بيننا أكثر من: السلام عليكم. عليكم السلام. فهي كانت تعيش وحدها، ولا ترى بنسبة ٩٠٪، لكنها تحفظ الحارة بيتا بيتا، وتمشي بإحساسها الطفولي تجاه البيوت القريبة، لم تكن تعرفنا ونحن أولاد، ولم تعرفنا ونحن شباب، لم ترى أشكالنا مرة واحدة. لكنها تعرفنا حين نقول لها: انا ابن فلان. كنا نزعجها جداً أثناء لعبنا لكرة القدم في وسط الحارة، ربينا دون ملاعب، وكان بيتها في منتصف الحارة، لم تسترح يوماً واحداً من ضجيج الأطفال ولعبهم، ولا حتى من سرقة شجرة الجوافة والعنبتين.

شيئاً قوياً يبقى بينك وبين هؤلاء، شيء لا علاقة له بمن يجلس أكثر في بيت الآخر، أو من يرقص أكثر في عرس يخص الآخر، أو من يحزن أكثر في حزن يعم الحارة.. فأنت تقيم هنا علاقة مع كل سور حتى نهايته، ومع كل شجرة حتى بعد اقتلاعها، مع كل دالية عنب ترمي ظلها فوق عتبة البيت، ومع كل دخلة ضيقة بين بيتين، وكل مساحة كانت مكانا للتسلية قبل أن يُبنى عليها بيت، ومع كل بيت يُبنى، وكل بيت بُني قبل أن تولد، وكل أرض تنتظر بيتاً.

شيء ما لا يعود حين ينقص إنسان من هنا! حتى لو كان الشخص عاطلاً عن العمل، فقد كان يوما له حَجَرُه الذي يجلس فوقه يرمي النكات أو الشتائم، حتى القطط هنا كانت لها حَجَتُها التي ترمي لها فتات الخبز، وفقدتها.

كل طفل يكبر هنا يوماً واحداً، نلاحظه جميعاً، كل طفلة يطول شعرها قليلاً وتُسرِحه للمرة الأولى نلاحظها جميعا. حين يخرج الطفل للمرة الأولى للعب والتعرف على البيوت والأطفال ودكان وسط الحارة، ينظر للجميع فيها وكأنه يعرفهم، كأنه يعرف الأطفال الأكبر منه بعام أو عامين، ويعرفنا نحن الأكبر منه بجيل أو جيلين.

لا يولد الإنسان هنا وحيدا، ولا يعيش وحيدا، ولا يموت وحيداً. نولد معه، ونعيش معه، ويموت فينا شيء إن مات واحداً منا.

نهايات نيسان ٢٠١٥ زارتني رجاء الكاتبة التي بحثت عنها حين قرأت أول صفحة في «امرأة الرسالة»، جاءت من حيفا، مارةً بالقدس، إلى اللبن الشرقية في وسط الضفة الغربية، لا تحمل سوى رائحة البحر من هناك وصورا لحيفا والقدس، ودفتر صغير ستهديني اياه، كُتب فوق صفحته الأولى: لك من حيفا، لتكتب.

تأخر السائق كريم في النوم ساعة أخرى، نَدِم عليها فيما بعد، فالطريق التي سيمشيها للمرة الأولى سيتوه فيها كثيراً، وستظل رجاء تتصل بي كل خمس دقائق لتسألني أين هما. وبحكم معرفتي بكل شجرة في الطريق وكل عمود كهرباء وحفرة صنعها المطر والإهمال، فإني سأدلهما جيداً من لحظة الانطلاق من فندق «بيوتي إن» في المصيون إلى بيتي على بعد ٢٧كم.

خلف المقاطعة يا رجاء عدة تفرعات نحو اليمين ادخلوا إحداها وسيرا بخطٍ مستقيم حتى الوصول إلى الشارع الرئيسي، شارع البيرة نابلس، ثم الانعطاف نحو اليسار حتى دوار البالوع -السيتي إن-، حيث كانت المواجهات مع قوات الاحتلال يومية في السنوات الأولى للانتفاضة الثانية، الآن سيرا في خطٍ مستقيم، على اليمين مغتصبة بيت إيل، على اليسار مخيم الجلزون، يبدأ بتلة ويمتد بشكل دائري نحو أراضٍ أقل انخفاضا، حيث يصل جفنا الجميلة،

رجاء خائفة من أن تتوه، ستخبرني أن أدلها الطريق بشكلٍ أدق، نعم يا رجاء هل تشاهدين نوافذ زرقاء على الجانبين، وجسر برتقالي اللون، هذه مدارس الأونروا على مدخل المخيم، وهذا جسر عبور الطلاب، أسرح قليلاً في صورة الذين خرجوا قبل ٦٧ عاما عبر جسر الأردن الخشبي –معبر الكرامة-، تلال صعدوها وبحر ركبوه، وبيوت تركوها خلفهم، وإلى الآن لم يعودوا! وكأنه قدر الفلسطيني أن لا يعود، أو يعود قليلاً بتصريح عبور لساعات إلى بلد عاش به أجداده وآباؤه، فيمر عن أثر البيوت والأشجار، لا يبكي ولا يفرح! فقط يصاب بالصدمة.

سيتناول كريم الهاتف، ليكمل معي وصف الطريق التي بدت ملامحها تتضح شيئاً فشيئا، كريم سِر إلى الأمام فقط، بعد أربع دقائق ستصل مفترق، إلى اليمين دورا القرع، إلى اليسار عين سينيا، بلد الينابيع والمشمش، سِر مستقيماً، خمس دقائق وتصل دوار عين سينيا، هناك استشهد عثمان قبل عام ونصف، على الجانب برج عسكري للاحتلال، يندهش كريم حين أقول له برج احتلالي وجيبات قريبة من المنطقة، نعم يا كريم أنت الآن تخرج من مناطق «أ» وتدخل مناطق «س»، على يسارك قبل قطع الدوار طريق عطارة - بيرزيت، على يمينك طريق عيون الحرامية، الطريق المشهورة جدا منذ زمن طويل بفعل قطاع الطرق القدماء الذين كانوا يسيطرون عليها، واشتهرت خلال الانتفاضة الثانية بعملية قناص عيون الحرامية ثائر حماد من بلدة سلواد، حيث نفذ عملية فردية على حاجز عيون الحرامية، تمت إزالته بعدها مباشرة، قتل وأصاب العشرات من الجنود والمستوطنين ونجا بأعجوبة قبل أن تُكشف خيوط العملية ويُلقى القبض على حماد، المحكوم الآن بالمؤبدات الكثيرة.

بعد أربع دقائق تصل مفترق عيون الحرامية، على يمينك طريق مستقيم تتوزع على جانبيه قرى تتبع رام الله وصولا إلى حاجز جبع، وعلى يسارك طريق نابلس، خذ يسارك ثلاث دقائق وتظهر سنجل على يسارك، وعلى يمينك ترمسعيا التي ستعتقد رجاء أنها مستوطنة لكثرة سقوفها القرميدية، هي بلدة فلسطينية ومن أثرى القرى، يقيم ويعمل الكثير من أهلها في أمريكا. بعد ثلاث دقائق تصل مستوطنة شيلو العنصرية جدا، هنا يستغلون كل شبر من أرضنا لزراعة الخوخ والعنب والمشمش والزيتون، ويمتدون!

خمس دقائق وتبدأ اللبن الشرقية بالظهور، ستستدلان عليها عن طريق اللوز المنتشر بكثافة على الجانبين، و طريقها المشهورة ب «قوربات اللبن»، ومنها كتب إميل حبيبي فصل «وأخيرا نور اللوز» سنة ١٩٦٨ وأدرجه في كتابه سداسية الأيام الستة، وكانت معروفة بأنها طريق نابلس – القدس.

بين اللبن الشرقية شرقا وعمورية غربا، سلفيت شمالا، وسنجل جنوبا، يقع جبل طروجه، بضع شجرات ما زالت صامدة في وجه الظروف الطبيعية وتكسير رعاة الماشية والحطابين والشوائين والمتنزهين، سنعدها: أربع شجرات رمان، لوزة، خروبة، تسع شجرات بلوط، وتسع شجرات سدر وسريس وقيقب، كريم يختار التوتة الوحيدة هناك ويصرخ في وجه الهواء النقي: الله ما أجمل بلادكم، تُشبه الجليل! بينما تلاحق رجاء بيت نمل يدهشها ترتيبه. أسأل نفسي بعد أن أمشي مترين للأسفل بعيدا عنهما، هل حقاً صدق كريم أم أنه جاملني؟ هل فعلا بلدي تشبه الجليل أم أنها مجرد صرخة عابرة من شاب لم يدخل الضفة إلا مرات قليلة جدا، وغداً يعود للقدس ويافا وحيفا وقيسارية وطبريا وعكا وصفد وبيسان، وربما ينسانا! لكن كريم أوقفني عن أفكاري المتشائمة عن بلدي حين ناداني لألتقط له مزيداً من الصور تحت التوتة وقرب

المقام الذي يتربع قمة طروجه، صَورني هُنا، صَورني هُناك، عند الصخرة، مع خلفية يافا، وأنا أصعد الشجرة.. صورني، صورني..

الاحتلال خلق لنا أمزجة مختلفة ومتحيرة، أراد لنا أن ألا نفهم أي المدن نحب، هل حيفا أجمل من رام الله؟ هل يافا القديمة تشبه نابلس القديمة؟ وهل القدس كبيرة وضخمة كما نسمع عنها؟! أراد لنا أن نسمع عن البلاد دون أن نتأكد بأنفسنا، أن نسمع روايات من يقطنون هناك ومن يزورن البلاد بعد خطوات طويلة ومعقدة من تقديم تصاريح وانتظار ردود، وغالباً ما يأتي الرد: مرفوض أمني! حيث يمكن لمزاج الجندي ابن العشرين عاماً أن يمنع رجلا هرما عاش طيلة حياته بين ذرات تراب الوطن من أن يُكحل عينيه ببحرنا هناك، أو بسجدة في الأقصى. وكأنه يقول له: عِش حياتك في جنين وطولكرم وقلقيلية وسلفيت والخليل وبيت لحم... أما المناطق المحتلة عام ٤٨، ففقط مسموح لك أن تحلم بها.

نادتني رجاء لنمشي قليلا على الطريق الترابية، تحدثنا دقائق قليلة عن براءة الجبال والأشجار والهواء والناس هنا، قبل أن يهاتفها الفندق لأمر ضروري، وتستعد للمغادرة. لم يساعد الطقس البارد والوقت الضيق على التجول لأكثر من عشر دقائق في الطبيعة، خرب البرد برنامج الزيارة، واكتفى بمنحنا إفطارا من خبز الطابون المغمس بالزيت والزعتر وأشياء أخرى كلها من إنتاج أرضنا، صُنعت بأيدي أمي وجدتي، لكن شادي الولد الصغير الذي وجدناه صدفة في الطريق وهو يهبط الجبل، أعطى الزيارة نكهتها، شادي من بلدة عمورية المجاورة، صبي بحدود الخمسة عشر عاما، يقطف الميرمية الجبلية كل جمعة ليبيعها في أسواق رام الله ونابلس، لمحه كريم مُحملا بالميرمية على حماره النحيف، أوقفه وطلب منه بضع ورقات ليأخذها معه إلى الجليل الفلسطيني، تبسم شادي وأعطاه ضُمة، وضُمة لرجاء، وفاحت رائحة الجبل، فاح الوطن بأكمله بيننا

الأربعة، قالت له رجاء: «سآخذها معي إلى حيفا، هل تعرف حيفا؟ أشار شادي بإصبعه إلى البعيد، وقال: آه هناك.»

حين عادت لحيفا، كتبت لي: يامن الروائي الشاب، جميل الروح، التقيته خلال يوم إطلاق كتابها «الباهرة» في اللبن الشرقية، لقاء جميل، فيه من الطيبة والبراءة أكثر مما عرفت عن العالم. روايته «ذاكرة اللوز» تدخل ضمن الروايات التجريبية الشبابية المنهكة برائحة البراءة، من أعالي البراءة دخلنا هذا المشهد. قالت بأني بريء ثلاث مرات، ابتسمت كعادتي ابتسامة خفيفة، وصمت.

نعم أنا بريء بنظرك ونظر الكثيرين، لكني مجرم بحق نفسي، لقد تبعت أشياء أتعبتني، وانشغلت بأناس لا يستحقون، رغم طبيعتي الميالة للانغماس في الطبيعة، وهذا وحده كاف لأكون حراً وسعيداً، وأظل مهما مشى العمر طفلًا، هوايته اكتشاف الطرق البرية والنباتات، وحب بسيط يقع لي وأنا في أواخر العشرينيات، من صبية عادية، أكتشف جمالها مع العشرة، وفقط. فالاستثناء هو أن تكون عادياً في هذا الزمن.

في آب ٢٠١٥ توفيت أم عماد، الثمانينية التي لا يعرف غير الذين يستخدمون طريق نابلس - رام الله بكثرة، أن موقع بيتها هو أخطر مكان في الضفة الغربية، وأنها ظلت لأكثر من خمسين عاما حافظة لهذا البيت المُحاط بالمستوطنين والمستوطنات من كل الجهات، ويبعد أكثر من ٤ كم عن بيوت اللبن الشرقية، وحيدا وجميلا، يقف على آخر شارع «المنعطفات اللولبية»، أو كما نسميها بالعامية «القوربات»، الطريق الذي كان يوما في منهاجنا التعليمي، حين قام أبو محمد في بداية الثلاثينيات ومهنته سائق حافلة تقل جنود انجليزيين، بالسقوط فيهم من أعلاه، فاستشهد وقتلوا.

وجرى في سبعينيات القرن الماضي تصوير محمود درويش في مقابلة فيديو أثناء مروره من تلك المنعطفات وهو يتحدث عن الوطن والشعر، وقبل ذلك كتب إميل حبيبي في ١٩٦٨ في رائعته سداسية الأيام الستة، «وأخيرا نور اللوز» وكان يقصد رحلته مع أربعة أصدقاء، منها قصة حب لأحد أصدقائه، فكتب: هل تذكر أنه في مطلع شبابنا كان لنا صديق، أحب فتاة من القدس أو من بيت لحم، من هناك، وكُنا نُحب حُبه ؟ وكانت له قصة، كنا في رحلة، ونزلنا أمام تلك الشجرة في باب طلعة اللّبّن، وكان هناك بيت، وكان فيه دجاج وأبقار، والبيت لا يزال قائماً ولكنني لا أرى الدجاج ولا أرى الأبقار، واستسقينا سكانه ماء، وإذا بفتيات في رحلة من القدس وهن يقطعن أغصان اللوز المنور. وكان بينهن صاحبة صاحبنا، إني أذكر عنه قصة جميلة، لا أدري الآن كيف وصلت إلي، فصاحبته قطعت فرعاً من الغصن وقدمته إليه، واستبقت الفرع الآخر، وتعاهدا على أن يحتفظا كل بفرعه، وأن يلتقيا في الربيع القادم، حين ينور اللوز، فيأتي بأهله ويخطبها من أهلها، فكيف كانت نهاية قصتهما الجميلة ؟. لم أتتبع نهاية القصة، وتساؤل إميل كيف انتهت! كفاني منها روعة البداية، أن تبدأ حُبك من هذا المكان، حيث تلتقي سلسلة جبال القدس بسلسلة جبال نابلس، وقد وصف إميل المكان بأكمله: «لذلك لم تطل دهشتي حين ارتقت بنا السيارة، لأول مرة بعد حرب حزيران، في منعطفات طلعة اللبن اللولبية، في الطريق من نابلس إلى رام الله. فلتت مني شهقة حين عبرنا المنعطف الأول، وارتج لساني ومقود السيارة في يدي، وهتفت زملائي الذين كانوا معي في السيارة: عشرون عاما وأنا أحلم بهذه المنعطفات اللولبية. هذه الطلعة لم تغب عن ذاكرتي يوما واحدا، إني أتذكر كل منعطف فيها، هي أربعة فعدوها، وهذه الجبال المشرئبة تحرس السهل الأخضر، هي عشرة فعدوها، وهذا الهواء النقي، هذا الأريج أعرفه، إني استنشق رائحة رافقتني طول

العمر، هذا المكان مكاني!.»

وسبق إميل أحد الكُتاب من نابلس، حين دون في مذكراته عن البيت الذي كان مقهى في سنوات الخمسينيات في الطريق ما بين نابلس والقدس.

بقيت أم عماد هناك، على تلال اللوز، ترى كل يوم الجبال العشرة كما وصفها إميل حبيبي، في بيت يُحسد من يعيش فيه ولو ليومٍ واحد، رغم أن الاستيطان يُشوّه الأمكنة ويبتلع ما تبقى، فقد شق طريقا حديثة تمر من أسفل البيت مباشرة للربط بين تجمعاته الوقحة الآخذة بالتزايد، بين مستوطناته «شيلو، عيلي، معالي لبونه».

أم عماد التي لا يعرفها الجيل الجديد من أولاد الحارة، بينما كُنت وأبناء جيلي في منتصف التسعينيات نعرفها جيدا، كان مشوارها الصباحي يبدأ مبكرا إلى عجائز بلدتي، ومنهم جدتي، كانت تعاني عجزا كبيرا في النطق، لكننا كُنا نفهم أنها تدعو الله لينجينا ويوفقنا، تبتسم في وجوهنا، وتلاعب شعرنا الكثيف حين كُنا أطفالا. نندهش من قُدرتها على السير كل تلك المسافة، وتلك المنعطفات التي كُنا نخشاها ونراها أبعد نقطة في العالم، ومن تكوين صداقات قوية مع نساء البلدة، وكانت لنا ذاكرة.

كان بيتها وردة المنتصف بين بلدة اللبن الشرقية وبلدة سنجل، وحدّاً فاصل بين حدود رام الله ونابلس، وممراً لعبور ما لا يُعد ولا يُحصى من مسافرين وعشاق للقدس وطريقها.

سابقا، في تشرين الأول ٢٠١٤، ستهبط الطفلتان إيناس وتولين من باص الروضة، على مدخل سنجل، وتهُمان بقطع الشارع الرئيسي، فيدهسهما مستوطن حاقد، استشهدت إيناس بعد ساعات،

وبقيت تولين بعد إصابتها بجروح خطره. قبلها بأشهر حرقوا محمد أبو خضير من شعفاط في أحراش دير ياسين، التي شهدت مجزرة عام ١٩٤٩ وراح ضحيتها ٤٩ شهيدا، ثم حرقوا عائلة دوابشة في دوما. يقتلنا اليهود دهساً وحرقاً وطعناً ورصاصاً وقصفاً وتهجيراً وتشريداً وهدماً وخنقاً؛ ونقتلهم بقاءً.. باقون هُنا!

ليس بعيداً، المسافةُ شارع! بين استشهادِ إيناس وعمر. عمر أولاً مع أنّهُ استشهدَ ثانياً، عمر أولاً عنْ يمِينك وأنت تصعدُ أولّ تلة قبل أنْ تنبسطَ السّيارة فوق أرض ترمسعيا، تمضي في خطٍ مُستقِيم، ستجدُ لافتة: «معاليه لبونه»، هذه كذبة لا تُصدْقْها، صدّقْ «سنجِل تُرحبُ بكم»، وصَدّق على بُعدِ ثلاثة أمتار «جلجليا تستودعكُم الله»، تنعطفُ يميناً بنحو ٩٠ متراً، تُطفِئُ محرك السّيارة وتترّجَلْ، تقطعُ الشارع نحو الجِهة الأخرى، تنزلُ قليلاً على الرّصِيف، بحدودِ نصفِ مِتر، قفْ على الحَصى الأبيض، وانزِلْ بنظرِك، نظرة واحدة، هُنا قتلُوا عمر. قُم الآن، اصعدْ بنظرِك، اقطعْ الشّارعَ مُجدَدا، دُرْ في مُنتصَفِ الشّارع، وامْشِ، قِفْ أمامك مُفترَق طُرُق، رام الله يَمِينا، ونابلس شِمالا، قِفْ قليلاً، الوضعُ هادِئ، خُذ يمينَك، وصلتَ لبُعد ١٦٠م، قفْ الآن ترّجَل مُجدَداً، ١٢ خطوة وستكون على الجِهةِ اليُسرى منْ الشّارع، عُدْ سِتاً، أيْ إلى مُنتصفِه، هُنا قُتلتْ إيناس. لا دمْ! فقط ذِكرى! امْشِ مرةً أخرى نحو الجِهة اليُسرى، انظُرْ أمامَك - مع انعِطاف مِترين نحو اليسار- طريق تُرابِيّة، لا تمشِهَا، على بُعد ٩٠متر بيت على واجهتِه لافتة لمُحمد أبو خضير، ورايات فِلسطينية، هُنا بيتُ إيناس. أكملْ طَريقَك الآن..

لا تَبْكِ شارِعاً لأنّ طِفلةً أو مُقاتلاً سقطُوا عليه شُهداء، لنْ تنتهي الطُرُق والشّوارِع منْ الصّاعِدين إلى الله.

كيف يموت وطن كل أسماء الشوارع فيه شهداء؛ حتى لو نسيت البلديات أو المسؤولون أو الأحزاب تكريمهم، فإن أطفال الحارات ينوبون بتغيير الشوارع، يأتي الطفل بمادة الدهان أو علبة الرش ويخط على مدخل حارتهم أو قرب البيت، شارع الشهيد... في خطٍ مائل وأحيانا غير مقروء بشكل جيد، لكن الجيد هو الفكرة، هذا مكان الشهيد، هنا كان، له ذكريات وصوت، هذا الطريق صوت الشهيد الحي في جيرانه.

خلال عامي ٢٠١٤ و٢٠١٥ دخلت منازل لأربعة عشر شهيدا، وكُنت آخر من يخرج منها، رأيت كل شيء، الأشياء التي لا تعني الثائرين عن بعد، وأقلام الثائرين في مواقع التواصل الاجتماعي، وعدد من الإعلاميين، فالإعلام يحضر دائما وقت خروج الشهيد من بيته وجنازته، أي في الوقت الأكثر فوضى، الوقت الذي لا أحد فيه يعرف أحداً، يُصور دمع الأم وجمل متقطعة منها ثم يُطفئ الكاميرا، في النهاية كل هذا موت وفقد، هؤلاء الشبان والأطفال الشهداء هم أزهار و ورود بيوتهم وأهاليهم، وأحيانا لا تكون هناك دموع لأن الموقف أكبر منها. نبكي ونتأثر بمجرد موت بطل في فيلم أجنبي، فلماذا لا يرغب البعض أن نبكي شبابنا وأطفالنا وهم حقيقة! أطفال وشبان لا نعرف كيف أنجبتهم أمهاتهم وكم عانى آباؤهم ليكبروا، ولا نعرف هم أنفسهم بماذا حلموا... كل شهيد هو حلم إنسان لن يخبرنا عنه أحد.

لكل شهيد أم وأب وأشقاء وشقيقات وأقارب يُحبونه، تمنوه عريسا لصبية حلوة، ورجلاً تعرفه كل البلاد، يحبون الخروج والجلوس والسهر معه، وأخذ مشورته، ووجوده كفرد من عائلة لم تنقص أحدا. ولهم جدات بكينهم أمام الكاميرا لثوانٍ ثم ذهبن بعيدا، الجدات اللواتي أحببنهم كأحفاد، وأعطينهم أسماء أخرى غير أسمائهم كنوع من الدلال والمرح.

للشهداء بيوت وغرف ونوافذ وأدراج، هذا ما قالته نساء وفتيات الحارات والشوارع التي ينتمون إليها، وتربوا وعاشوا فيها، ولهم نوادر ومواقف محزنة وأسرار في ذاكرة أصدقائهم.

مربك أن يكون في طريقك اليومي بيت شهيد، في الشتاء الفائت، حاولت أن أتصنع النوم حين وصلت مشارف بيت الشهيدة الطفلة إيناس، وألا تلتفت عيني للطريق الترابية التي كانت توصل خطواتها الناعمة إلى هناك. كان المطر يسيل في حُفرٍ صغيرة وقنوات رفيعة حفرها بتساقطه المستمر لثلاثة أيام، في الطريق الترابية لبيتها، تذكرت قدميها وهما تغطسان في هذه الحفر، أو تمازحها رفيقتها تولين برمي حجر في حفرة بجانبها، فتبللها.

ماء يمشي وحده يا إيناس، وحده في الطريق لبيتك، لا تقلقه خطواتك.

وأنت تصعد آخر صعود بعد كنيسة جفنا؛ حتى طُرق بيوتهم تكون صعودا، على يمينك توتة كبيرة، بإمكانك أن تنزل هُناك وتمشي ثلاثين مترا، ثم تأخذ اليمين مرة أخرى، نزولا، طريق فرعية صغيرة، كُلها لوز، بالذّات الجهة اليمنى منها، حيث كان يستظل أصدقاؤه قبل وصول جسده للمرة الأخيرة، محمولا. كل هذا الوصف كان الشهيد عماد يعيشه يوميا، صرخت أخته، نورا (٤ سنوات): «عمااااد، عمااااد»، كانت الإسعاف تُدير محركها، وتستعد للمغادرة مُحمّلة بالطفل الذي صار رجلاً وبطلاً وشهيداً ورحيلاً، صعد على دعاميتها الخلفية خمسة عشر شابا، فتّعطلت مُحاولتها الأولى بالسير، ونورا تصرخ: «عمااااد، عمااااد».. بينما عجلات الإسعاف تدور بقوة وضجة في مكانها، ناشرةَ الغبار، والحصى الصغيرة. وكُنتُ قادرا على تمييز ذاك الصوت، ذاك النداء، وسط غبار وضجيج العجلات، وأصوات الأصدقاء

وأهالي البلدة، وأهالي الفتى، ذاك الصوت الناعم، والذي لم يرتفع قبل تلك اللحظة بمثل ربع ذلك العنف.. وكأن كل شيء قد هدأ..

هدوء، صفاء، لوز، توت، سرو، وزيتون بيرزيت يُطل على التلال المُلقاة أمام الأعين، أناس، قطع قماش تُرفرف عاليا، سيارات، كاميرات، دموع، أرجُل تتداخل وتتراكض، كُلها تتحرك ببطء وهمس. همس يُشبه إعادة فيلم للوراء بضع دقائق، صوتٌ واحد يقتحم المشهد، فيُحيل الفيلم إلى واقع، صوتٌ واحد يُريد للمشهد ألا يُصبح فيلما مكررا، فيصرخ، مُحولا المشهد إلى جنازة حقيقية. لحظات بعد الصرخات الأربع، يهبط الشبان عن سيارة الإسعاف، تُدار سماعة المسجد المجاور، وأجراس الكنيسة، وتلحق النساء ببداية التشييع، يقفز الجميع إلى سياراتهم، وآخرون يجرون أمام الجميع، وتُرى الرايات وألوان الفصائل تتقاتل في الهواء، على اللاشيء! لحظات ونبتعد، يتداخل كل شيء، تصبح الأصوات عالية ومتداخلة، هذا ينادي: يا أم الشهيد.. آخر: الله أكبر.. آخر: الرد الرد.. لحظات ويصرخ الجميع، فتفقد تركيزك، لأن صوت نورا اختفى. كان الوحيد القادر على أن يقول: كم كان الشهيد محبوبا. هُم فرحون لأن أبناءهم شهداء، لكنهم ليسوا فرحين بأنهم رحلوا الآن، وإلى الأبد.

تزغرد أمهات وقريبات الشهداء لحظة الإعلان عن استشهادهم، عائلات توزع الحلوى، وأخرى تقول: هنئوني باستشهاده، لكنهم جميعا متفقين بداخلهم أنهم فقدوا عزيزا وغاليا، ابناً أو أباً أو أختاً أو قريباً. بعد أيام قليلة من انتهاء بيت عزاء الشهيد، وحين ينفض الجميع، تذهب أمهاتهم بصمت وقهر إلى دولاب ملابسهم وأشيائهم الخاصة، يستنشقن آثارهم وروائحهم حتى الوجع الأخير!

لا امرأة تزغرد لجثمان ابنها الشهيد فرحا، إنها الصدمة، تفعل

النقيض. في بداية التسعينيات أدخلوا أحد الشهداء إلى أمه لتودعه، كانت الغرفة ملأى بالمعزين والجارات والقريبات، وضعوه على الأرض وكشفوا وجهه، كانت الرصاصة التي أصابته في أعلى العنق قد غيرت ملامحه، هجمت أمه على أصابعه لتقبيلها ثم نادت على أختيه: «تع شوفن يما أصابعه مليحه ما فيهن إشي!».

أم شهيد من أحد مخيمات رام الله، صرخت فوق جسده المثقوب من ظهره: «يما أخذت قلبي»، وبالتأكيد أن لديها أطفال آخرين، زوج وأقارب.. يا الله، كيف ستحدثهم دون قلب؟ كيف ستنظر لابن الجيران الذي في عمره، حين يُمر بباب البيت دون أن يطرقه، ودون أن تقول له: «نزار بتحمم يا خالتي».

في مخيم لا يبعد عن قلب رام الله أكثر من خمسة كيلو ميترات، في زقاقٍ ضيق جداً، جداً، جداً، لا أدري إلى كم جداً أحتاج لأوصل كم حقاً هو ضيق، النوافذ المتقاربة بشكلٍ هستيري من بعضها البعض، تخيل معي أربعين نافذة تُطل منها أربعون يد، وثمانون عين تدمع مرةً واحدة. هكذا خرجت جنازة الشهيد من باب بيته في قلب المخيم.

بقيت أتابع الأيادي الخارجة من النوافذ وأقدام المشيعين وهي تهبط وتصعد، وأقول: أين قدماك يا أحمد؟ لِمَ لا تنزل عن الأكتاف وتمشي معنا؟ فقد جئنا لأجلك! انزل انزل أيها الشهيد، وأحمد يرفض، يرفض إلا أن يظل عالياً. وظلت الأيادي تُلوح له، مع السلامة يا أحمد، الأيادي أقوى من الدموع، والدموع التي لا تُرى أقوى من الأيادي التي تُلوح.

تبتعد الجنازة قليلاً والأيادي تهبط وتختفي بعض الشيء، إلا يداً واحدة لامرأة تبدو في الثلاثين من عمرها، تلوح بقوة، حتى ونحن نبتعد أكثر ونختفي أكثر، يداها تلاحقنا وتسير بين الجموع.

لأول مرة أدخل بيت شهيد لحظة وداعه، في كل المرات السابقة كنت فقط أمشي بمقدمة الجنازة أو على مقابلها، هذه المرة كُنت في قلبها تماماً، قرب أمه، يا الله من مشهد أمه - لن أقول فيها شيئا- ومن مشهد والده البسيط وهو يدخل قبل جثمان ابنه -العريس بعد عشرة أيام- لم يقل سوى كلمة واحدة: «لا أريد صراخاً حين يدخل أحمد» متوجهاً إلى زوجته بالحديث: «وين أمه؟ إوعك تصرخي صوت واحد»، وكُنت أدير وجهي، نعم أديره، فأنا أضعف من هذه المواقف، ومرة واحدة هبطت فوق كتفي يدان لا أدري من أين ولا لِمن ولم أقوَ على الدوران لأعرف صاحبة اليدين لكني سمعتها تقول: «مع السلامة يما يا أحمد»، لم تكن أمه. وضعوه على الطاولة لدقيقتين فقط لنظرة الوداع من عيني أمه.

كم كان خروجه من باب البيت الصغير قاسياً، لآخر مرة سيخرج أحمد من هذا البيت الذي خرج منه وعاد طيلة ثلاث وعشرين سنة، هذه المرة لن يعود أحمد.

انتهت الجنازة، تفرق الناس، مشيت وحدي مع صورة يد المرأة التي ظلت تُلوح مودعةً، وصورة خروجه الأبدي من باب البيت. قلت لنفسي: على الإنسان أن يعيش كل عام من حياته في بيتٍ جديد، ليخفف عنا، نحن الذين نسمع الصراخ الصامت للأبواب وهي تُودّع أصحابها. وأن يختار جيران جدد، كي لا يُتعب أيديهم وهي تلوح رافضةً فكرة أنها لن تصافحنا ثانيةً.

هنا لا تحتاج لأن تكون وطنياً لتمنع نفسك من البكاء، تحتاج أن تكون فقط قوياً، وأنا لم أكن، فبكيت!

في طفولتي رأيت مرة جنازة ضخمة خرج بها كل أهالي قريتي، رأيت فيها أشياء مرفوعة وقطع قماش مختلفة ترفرف عالياً وكنت قبلها شاهدت جنازات للكثيرين دون أن أرى ما رأيته في هذه

الجنازة فسألت أبي: «لماذا يا أبي خرج كل الناس حين مات هذا الرجل؟»

- لأنه شهيد.

وبماذا يختلف عن جارنا أبو أحمد الذي مات دهساً؟

- هذا مات اغتيالاً برصاص الجيش الاسرائيلي.

إذن من يطلق عليه الجنود النار يصبح شهيداً؟

- نعم.

ثم كبرت وارتعبت. رأيتهم على الحواجز، وكان أولها حاجز زعتره، وسمعتهم بلغاتٍ مختلفة، وبأشكال غريبة وبلا رحمة، رأيت بنادقهم المستعدة دائماً لأي شيء. وكبرت، صار لدي بطاقة هوية وبها أحرف عبرية، وشهادة ميلاد باللغتين، أقف على حواجزهم وتُطلب هويتي وأسمع كلاماً له علاقة بممنوع ومغلق، واسكت، واجلس، وانتظر، وارجع من حيث أتيت. ثم دقوا بيتنا ليلاً واقتادوني معهم في ليلة باردة من بداية شباط، وعرفتهم أكثر، ككل أطفال فلسطين عرفتهم وكبرت في ظل غطرستهم، وأرفضهم. وأتمنى لو أن العرب دجاجة وفلسطين صوص صغير، لا أقول لتمنع أحداً من الاقتراب منه، إنما لتحاول ولو لمرة خدش يده.

وعرفت هذا الاحتلال اللعين، من الأباتشي والهيلوكبتر، حين كانت تجوب السماء ونحن أطفال نلهو بألعابنا البسيطة آنذاك فنبدأ بإطلاق الشتائم البذيئة وكان أكثرها ترديدا على ألسنتنا: «ابن زنى»، ونلاحقها بالصفير، أتذكر حين كانت تبتعد فنصرخ: «هزمناها، هزمناها، هربت من صفيرنا.»

في بدايات الانتفاضة الأولى، حين كان الحجر مُرعباً، اضطر

الاحتلال لبناء سور يلف مدرستي، حدث ذلك نهاية الثمانينات، كُنت وأبناء جيلي أطفالا صغارا، وحين اندلعت الانتفاضة الثانية لم يشكل سورهم إلا مصعداً لأكثر الفتية شقاوة من أبناء جيلي، الفتى الذي كان يتسلق السور ليصيب بدقة أكبر باصات الإيجد، حين كانت بلون أحمر، والأصفر بندرة، وتمشي خلفها مركبات بيضاء صغيرة بلواحة، لحراستها من حجارة الأطفال أمثالنا، وكُنا نسمي تلك المركبات «كوشي»، لصغر حجمها، لاحقاً سيتبدل لون الأيجد للأخضر.

حين أستشهد قريبي في ١٩٨٩، كان عمري سنتين ونصف، كبرت قليلا وأصبح بإمكاني المشي، والتعرف على الأشياء في الحياة، كانت لي أمنياتي، على قَدرِ سني في ذلك الوقت، والتي أيضاً لم تخرج خارج حدود الحارة والقرية، من ألعاب الشقاء مع الأطفال، مرة ونحن نتنافس على الصعود إلى قمة شجرة خروب، قُدّ بنطالي، ولم يتوقف أبناء جيلي عن الضحك على الموقف طيلة هبوطي عن الشجرة، مقدود البنطال ومجروح في فخذي الأيمن، أمسكت طرفي البنطال وهربت إلى البيت لحقني بعضهم الى منتصف الطريق يرددون: «أبو بنطلون ممزوع..» حدث هذا قبل أن نكتشف جميعاً أنّ التمزق أنواع، وأن الفرق شاسع بين الثياب والروح، بين الدم النازل وجرح المشاعر، بين ألعابنا الطفولية ولعبة الحياة.

حين استشهد، زرعوا له لوزة، بطرف حارتنا، يميزها تمايلها وبنفس الوقت شموخها وثباتها، غريبة هي، تبدو لك عن قرب أنها ستسقط، حيث تقف على حافة تلة وصخور، أسفلها وادٍ، ومن الوادي تبدو كأنها تحمي التلة وتسند الصخور، حين صرت في الثامنة وبدأت أعي أكثر ماذا يعني الشهيد؟ وماذا يعني الاحتلال؟ صار للوزة هيبتها.

مع غروب الشمس، وتحت زيتونة، على أطراف سلفيت استشهد. سبع رصاصات في صدره، سبع رصاصات وما زالت دالية العنب بباب بيتهم تتنفس وتُطعم الحارة بأكلمها. كانت أمينة حينها صبية صغيرة وبيتها أقرب بيت على المكان، سمعت صوت الرصاصات فخرجت لتجده يلفظ أنفاسه الأخيرة، سألته: ما اسمك ومن أي بلد أنت؟ قال اسمه وبلده، ثم استشهد. فوعدت نفسها حين تتزوج وتنجب أن تسمي ابنها الأول على اسمه، وبعد عام واحد وُلد واجد عفانة.

في سنةِ ١٩٩٢ كنتُ في السّادِسةِ منْ عُمري، وزياد في الخامِسة، كُنّا جَارَين وصَدِيقَيْنْ منذُ ذلك الوقت، كانت الانتفاضةُ الأولى في آخرِ مَراحِلِها، فاستشهدَ شابٌ منْ حارتِنا، أمُ الشّهيد جلستْ على الأرض، وبدأت بالضرب، ضربة للأرض وضربة لصدرها، وتصيح: «ابني طخوه، ابني طخوه»، مَزّقت منديلها، وصارت النّساءُ تُوَلْوِل، فَحين يستشهدُ شابٌ في قريةٍ صَغيرة كَقريتِي تُصبحُ كلُ النساء أمه! كُنّا نجلسُ قَريباً منْ البيتِ دونَ أنْ نَجرُؤ على الاقتِراب، قلت: «شايف يا زياد ما بدنا نستشهد، عشان إمِي وإمَك»

جاءَ الإسعافُ بالشّهيد، وهجمت كلُ البلدِ على بيتِه، تسّلقتُ مع زياد شُبّاكَ مَطبخِهم لِنرى ما الذي يجرِي، وكان الرَجالُ يَومَها يبكون وهمْ يُدْخِلونه غُرفة الضّيوف ويقولون: «بِدون عياط ، اهدِنْ يا نسوان...» وهم أنفسُهم يبكون! «شايف يا زياد حتى الرجال يبكون في هذا الموقف»، إمامُ المسجدِ الذي فتحَ السّماعة على القُرآنِ الكَريم مُنذُ الصّباح كان يبكي أيضاً، كُلُ القريةِ تبكِي.

ما بدنا نستشهد يا زياد.

ركضنا كباقِي الأطفال أمامَ الجَنازة، وكان مُلثمون يُطَوّقون

الجُثمان، ومُلثمون آخرون يكتُبون على جُدرانِ القرية، ويُوقِّعون تحت السّطر بكلمة «فتح»، ولم نكنْ ندري يومَها ماذا يعني السّطر أو الكلمة، وكان مَدخلُ القريةِ مُزدَحِماً بالجِيبات الإسرائيليّة، لا أذكرُ إنْ حدثَ إلقاءُ حِجارة أو أنّنِي سمعتُ أصواتَ رصاص، لكنّ مشهدَ الدُخانِ الأسودِ الكثيف المنبعث من إطارات السيارات المشتعلة في جميع الطرقات، لمْ يَغبْ عنْ بالِي إلى اليوم. بعد أشهُرٍ قليلة صارتْ أمُ الشّهيدِ تجلسُ بِبابِ بيتِهم مُدةً أطْوَل، فَنمُرُ عنّها خَجُولِين مِنْ طرحِ السّلام، لِظَنّنَا أنّها لنْ ترُدْ، ثم حدثَ مَرةً أنّها أوقَفَتنَا وقدّمتْ لنَا التّين، فصِرنَا نقولُ لها خالتِي... كَبرنا على هذه الكَلِمة، وصارتْ أُمُ الشّهيدِ خالتَنَا.

في موسم التين الفائت، دلني أحدهم على صخرة صغيرة في أطراف قريتي استشهد عليها شاب في بداية التسعينيات، لسبب ما أجلت الذهاب إلى هناك، والجلوس مع المكان، مررت قبل أيام فوجدت جرافة ضخمة تفتح طريقاً، وقفت بعيداً أراقبها وهي تُفَتِت الصخور وتجزئها صخورا صغيرة جدا، قبل أن ترفعها جرافة أخرى وتهوي بها في شاحنة.

كانت صخرة بطول متر ونصف، ترتفع عن الأرض بمقدار سبعين سم، حين وصلت كانت قد اختفت، وقدّرتُ أنّ الجرافة مشت تُسوي الأرض مبتعدة عن مكانها نحو ثلاثين متراً، رغم فشلي العميق في مادة الرياضيات في كل المراحل الدراسية، وخساراتي التي لا تعد لحظة استرجاع الباقي من أصحاب المحال التجارية، وأخطائي المتكررة مع سائقي المركبات العمومية أثناء دفع الأجرة، إلا أنني لم أقوَ على أن أُخل في تقدير حجم الصخرة والمسافات التي صارت عليها، ذلك أن الشهداء لا يسمحون لأحد بأن يُخطئ في حسبتهم جيداً.

في أيار ٢٠١٥، عمان، سألتقي للمرة الأولى بأحد أعمدة القهر والشتات الفلسطيني، ناجية من مجزرة صبرا وشاتيلا، في خلفية الحديث كانت تبكي بكاء الأطفال، بكاء عمره ٣٣ عامًا، يوم كانت رضيعة لا تعرف من الدنيا غيره، كان الدمع عبارة عن قذائف تنفجر في كل مكان، جدران تتطاير وسقوف تهوى، شهداء يغرقون في دماء بعضهم البعض، المفزع كان صراخ النسوة وبكاء رجال ظلوا على قيد الحياة.. وكان هناك صمت عاهر، وربما ضحك من آخرين.

كُنا وما زلنا نموت وحدنا، ولن يرد موتنا إلا عقولنا وأجسادنا، هذا ما كتبه غسان ورسمه ناجي وطبقه على الأرض العياش. حراك شبابي عظيم في الذكرى (٤٣) لاستشهاد الإنسان غسان كنفاني، لو كان لدينا صحافة وطنية لنشرت صورته واسمه على رأس الصفحة الأولى، وكأنه استشهد اليوم.

مع أنني لم أقرأه بعد بما يكفي، وأخجل أن أقول أن ما قرأته فقط هو خمسين صفحة متفرقة من الأعمال الكاملة، وقراءة لمرة واحدة فقط، لكني أرى من خلال الأصدقاء أنه الإنسان الذي استطاع بعد هذه المدة الطويلة من الحروب والفصائل والعمليات والسجون والشهداء والمنافي والخيانات والأدب المقاوم، أن يظل الرقم واحد في كل شيء. هو اليوم يجني ثمار فلسطينيته، بهذا الحب العظيم لشخصه.

خُلد بالقلم والنظرة، كانت نظرته مُصوبة إلى فلسطين، فلسطين التي نرى الأعين كيف تنزاح عنها اليوم.

دون أن أنسى مشهداً في معرض الكتاب الفلسطيني، في نهاية عام ٢٠١٣، في إحدى الجامعات، حين جاء شابْ يُقلب الكتب المعروضة، رأيته يعمل بهوس بين الكتب يُبعد بيده كتب

إميل حبيبي وغسان كنفاني.. وأسقط أرضاً كتاب: «رجال في الشمس».. وانتظرني لأرفعه! لم أساله عن ماذا يبحث تركته حتى ملّ.. نظر إلي وقال: أين كتب أحلام مستغانمي؟ سمعت أنها أصدرت كتابا جديدا! أسقط البندقية والمخيم وحيفا.. بحثا عن القُبلة والمقهى وباريس! هكذا يموت غسان كنفاني، هكذا يرحل كاملاً. ليس لدي مشكلة مع حُب أحلام، مشكلتي في تجاوز غسان!

أما أنت يا ناجي فكل الذين ساروا على نهجك انتهوا شهداء، وكل الذين عاكسوك الدرب ماتوا بطرق واضحة! وحدهم العظماء يموتون في ظروف غامضة. أيها الواضح جدا فينا ومنا، ريشتك المستيقظة تساوي ألف مدفع نائم، وتفضحهم إلى الأبد. فأنت من قالوا فيك: من يرسم العار ليجعله أكثر عاراً.

لربما أكثر شهيد ما زال الاحتلال يعتقد أنه حي يرزق هو يحيى عياش، إنه أكبر مُرعب بالنسبة له، إن فكرة الحديث عنه بحد ذاتها أمر يدعو للقلق والارتجاف، إنه إلى الآن لا يُصدق نفسه، بأنه قتله! خلال مطاردته لسنوات قليلة، بحثوا عنه في كل جغرافية فلسطين، حتى في قريتي التي ربما لم يدخلها العياش في حياته، لكن هوس الاحتلال آنذاك جعله يعتقد أنه قد يدخل أي بيت ليخطط لتطيير سقف حافلة جديدة في العفولة أو القدس أو ديزنغوف أو نتنانيا أو تل أبيب.

لقد كان عياش شظيه، إن أصابت إسرائيلياً شعرت بألمه كل إسرائيل، كان الطلقة الأكثر عُمقاً في مفاصلهم.

المسافة بيننا شهيد

تُذكرني زغاريد أمهات الشهداء، بزغاريد أمهات العرسان، لكن زغرودة الشهيد تبقى زغرودة ألم، مهما علت وابتسمت، حتى أن «سبل عيونو ومد ايدوا يحنولوا.. خصروا رقيق وبالمنديل يلفونوا» هي بداية أغنية سبل عيونه التي كتبها الشاعر الفلسطيني خالد أبو خالد، وغنتها فرقة جذور في عام ١٩٨٨ للشهداء في أَوجِ انتفاضة الحجارة، صارت جزءاً أصيلاً من التراث الشعبي الفلسطيني، لا يخلو حناء عريس من غنائها. يجلس العريس الفلسطيني في نهاية حفلة السهرة على كرسي، يحيطه الشبان، أحدهم يبدأ برسم الحناء فوق يده، بينما يُغني المطرب الشعبي ‹سبل عيونه ومد ايدوا›.. إنه تداخل الحزن والفرح بشباب فلسطين.

غالباً ما تنتقي أمهات الشهداء في آخر الحوار الصحفي عبارة: «راح ومش راجع»، ثم تبكي دموع قليلة وتدير وجهها عن الكاميرا، حتى هنا لا يكون الألم الحقيقي قد بدأ، إنه يظهر فيما بعد، في أمنية ابنها في أن يكون كما وعدها طبيباً أو مهندساً أو طياراً أو

رساما ... يظهر في موائد الطعام الناقصة واحدا، في ملابس العيد، في فراشٍ خالٍ، في صوتٍ فُقد للأبد، في مناسباتٍ اجتماعية تخلو من هذا الشاب، في طَرقِ الباب، فكلنا نختلف في طريقة طرقنا لأبواب بيوتنا، ربما كان محمد لا يطرقه أبداً ويدخل لأمه مباشرة. مَن سيفاجئها بعد الآن أنه عاد من مدرسته أو عمله وبات فوق رأسها دون استئذان.

ربما كان يحب مشاكسة أمه قبل موعد افطار رمضان بساعة، كأن يُطل من خلفها متابعاً بخار الطبخة التي تغلي فوق الغاز، مُتنفساً إياه بعمق، مُشعلاً حواسه في محاولة لمعرفتها دون أن تحس أمه بوجوده، وحين يملّ يحرك شيئاً ما - يد الباب مثلاً- لتلفت إليه وتطمئنه: «يمّا فطورك اليوم فاصوليا بيضا».

أجوب كل القبور إلا قبور الشهداء، لا أقترب منهم أبداً، أخجل كما خجل قبلي دريد لحام في السبعينيات حين سأله والده الشهيد في مسرحية كاسك يا وطن: «هل تحرر الوطن بعد ثلاثين عاما من النضال؟!» أخجل أن يسألوني هل تحرر الوطن بعد سبعين عاما؟

مقبرة القرية قبالة نافذتي، فيها قبور لستة شهداء، خمسة منهم استشهدوا في الانتفاضة الأولى، وواحد في الانتفاضة الثانية، أُغلق النافذة بعد شعور ما، أفتح دفتري وأكتب: «يا وطني لولا مقابر الشهداء فيك، لأسميتك أي شيء، أي شيء، سوى وطني».

خلال بحثي في صور شهداء معركة قلعة الشقيف وجدتها بلا ملامح واضحة، ومهترئة؛ وكأنها تُفسر المرحلة الحالية، فالصور البارزة واللامعة هي لِمن لن يكونوا في يوم شهداء. أنا أعرف كل الأنذال في مدينتي، لكن لا أبوح بأسمائهم لأحد.. ليس صعباً على الإنسان أن يكتشفهم، ما داموا يقومون كل يوم بالأفعال التي تُثبت ذلك.

المصيبة الأكبر في أولئك الذين يصرون في كل مناسبة على الحديث عنهم بصفات الشجاعة والجمال والوطنية والثقافة والحب، وبأن وجودهم يُعطي البلاد رائحة طيبة.

ليست المصيبة بأن يكون في مدينتك كومة من الأنذال، بل كومة من الذين يُصفقون لهم. هناك من ولدوا ليكونوا أنذالا، هؤلاء لا يمكن زجّهم في المعارك الكبرى ولا بأيّ شكل من الأشكال، لا يمكن لكاميرا محترفة أن تأخذ لهم صورة واحدة شجاعة! لا يمكن لقلم اشتروه أن يُشعر شخصاً واحداً حراً بأنّ ما كُتب فيهم صحيح.

لا مشكلة اليوم في أن يكون عدد كبير منهم يمتلك مساحة شاسعة من الإعلام والشارع، والعلاقات التي تتغنى به، فهم يشترون الإعلام ويشترون الشارع إن لزم الأمر. هذه هي معركتهم الأولى والأخيرة، الوحيدة والخاسرة، أن يقاتلوا بما أوتوا من أجل نجاستهم وجبنهم. الأحرار يعرفونهم، وهم يعرفون ذلك، الأحرار لن يسكتوا غدًا، حذاء أحدهم يحك رجله، يتهيأ للخلع لرميه على الوجه مباشرة. هي ضربة للتاريخ ولجبناءٍ وأنذالٍ آخرين يستعدون للمضي في نفس الطريق.

في نيسان ١٩٧٦ التقطت كاميرا هاني جوهرية صورة القذيفة التي انفجرت في صدره، في عينطورة بجنوب لبنان. هكذا يختارُ الأبطال موتهم.

إنه أحد الأبطال المجهولين، من أولئك الذين يرحلون تاركين وراءهم مشقة العثور عليهم، لكن دائما ثمة طرف خيط يقود إلى الأبطال، وهذا يقودني إلى شعراء وكتاب كبار مَنسِيين، كمعين بسيسو، وعلي فودة وآدم حاتم.

آدم حاتم رحل دون أن يُطبع له ديوان واحد، كان جوابه المعهود:

«قصائدي خيول برية ولا أرضى أن أضعها في أسطبل».

قرأت مرة عنه: «في الطريق إلى مقهى الروضة في دمشق، رأى حاتم سيارة كوستر متوقفة في الطريق وشاهد ملصقاً صغيراً كُتِب عليه بغداد فقامَ وقبل الملصق أكثر من مرة».

«عاش بلا بيتٍ ولا عملٍ ولا أيّ احتمالٍ بوطن ما على الطريق. كان يستعير قلماً من أقرب شخص في مقهى أو حانة، ويستلّ دفتراً صغيراً جداً من جيب قميصه، ويكتب مفاتيح قصيدته، أو يرصف الأسئلة أمام مغاليق حياته، الذاهبة بمتعة السحر إلى المجهول».

«كان رجال البلدية في صيدا يقودون جنازة الشاعر العراقي إلى مثواها الأخير، حيث لم يسأل عنه، أو يستدلّ عليه أحد، فدفن من دون شاهدة أو تعريف، كما حياته بين المنافي».

في المسافة بيننا دائما ثمة شهيد، لا نفرق بينهم، ويظل لبعضهم خصوصية لا ندريها، لكننا متفقين عليها، ومن أننا أحببنا طريقته في الذهاب إلى الوطن بكامل دمه.

محمد واحدٌ منهم، فكتبت لكِ: لم أكن قريبا من المنطقة لأسمع أصوات إطلاق النار أو أرى ناقلات الجند، لكنني قريب بما يسمح لي لسماع ورؤية الطائرات الحربية، صباحا قالت الأخبار أنّ محمداً أستشهد. كل هذا كان من أجل محمد، أجواء حرب شهدتها قرى غرب رام الله (دير ابزيع، كفر نعمة، نعلين، بيت لقيا) شهيد من الكهف هذه المرة! في زمن لم يعد أحد فيه يستشهد في الكهوف، شهيد من رائحة الانتفاضة الأولى، يوم كانت المُغر والكهوف قلاع المواجهات، ومأوى الأبطال، الصخر فراش وأوراق الزيتون غطاء، ما أجمل الشهيد وكهفه.

كنت تقاوم وحدك، وتعيد فينا رائحة الشهداء، في زمن الفلتان والقتل على خلفية الشرف وحوادث السير والغرق.

ليلتها نام الذين يُذيعون الأخبار مبكرا، وأنا أعتذر لروحك عنهم جميعاً، عن كل إذاعة وكاميرا وقلم وصوت في الوطن، فهل تقبل اعتذاري؟!

سألتِني في رسالة نصية على الهاتف: هل طلع نرجس بباب الكهف؟

قلت: وطلع مطر أيضاً! في حالة الشهداء تتبدل قوانين الكون، فيطلع المطر بدلاً من أن ينزل.

وسألتِ: حين ينام الشهيد، ألا يصحو أبدا؟

قلت: بل، يصحو

قلتِ: كيف؟

قلت: لأنه حي، نحن من يقتله ونحن من يُوقظه، نُوقظه بالكلاشينكوف، بالحجارة، بالمولوتوف، بالغضب! حين نهدأ ينام، حين نرفض يحيا..

بعد ثلاثة أعوام سيستشهد محمد آخر، رافضاً تسليم نفسه، مُتحصنًا لأكثر من سبع ساعات في بيت في صوريف. صباحا وبعد معركة ليلية أشرك فيها الاحتلال مئات الجنود وعشرات الجيبات والأباتشي والجرافات، خرج محمد شهيدا! خرج محمولا على مقدمة الجرافة التي انتشلته من بين أنقاض البيت الذي تحصّن بداخله، استخدموا معه الحصار ومكبرات الصوت والرصاص والصواريخ والهدم، فانتصر!

إلى محمد «زر الورد»: من يستشهدون بهذه الطريقة، هم الذين آمنوا وهم يّطلقون الطلقات الأخيرة أنّ القضية ليست مُعقدة كما نعتقد نحن الأحياء، هم شهداء منذ قرروا ذلك، بل إنها بسيطة إلى درجة أن بضع طلقات كلاشنكوف تُبدّل شيئا على الأرض، تُغير خطط وقناعات وسياسات في الطرف الآخر، وتصنع فرقاً للأجيال، وتكتب رسائل إلى من لم تصلهم قبل ذلك رسائل أناس لا يقبلون الهزيمة الداخلية.

اليوم ذكرى يوم الأرض، ملصقات غير شرسة تشير إلى الذكرى في شوارع المدن، بيانات فصائلية تجدد العهد والبيعة وتقول أنها ستحرر الأرض كاملة!

وهجُ الذكرى وغيرها من المناسبات الوطنية خفَ. كنت أمشي في وسط رام الله حين كانت تجوب مسيرة إحياء الذكرى شوارع المدينة، دون أن تنتهي بمواجهات على نقاط التّماس، حالها كحال المدن الأخرى، ما كان مُؤذيا هو محاولة فرض الإضراب التجاري، إذا كان الإضراب التجاري بالقوة والصراخ والإحراج، لا بالإيمان به، فالأفضل أن يتم إلغاء المناسبة، لئلا يَسوّدَ وجهها أكثر.

سبب آخر، الصحافة أكثر من عدد المتظاهرين. وهذا السبب سيتكرر كثيراً، خاصة في الوقفات مع الأسرى المضربين عن الطعام، وبالأخص عند بوابة سجن عوفر قرب بيتونيا.

إذن إلغاء مناسبات عظيمة كهذه، يُبقي عليها هيبتها.

صرخ ناشط شبابي في وجه تاجر، طالباً منه إغلاق محله، رفض التاجر قائلًا: مَن أنت لتعلمني الوطنية؟! ونحن كمارة عاديين لا

نعرف إن كان قلب الناشط على الذكرى والوطن، أو أنه يُتاجر، ولا نعرف أيضاً إن كان التاجر يهمه الشيكل أكثر من ستة شهداء وأربعين عاماً من عظمة المناسبة، أم أنّ لديه أطفالاً جياعاً ينتظرونه في المساء.

بعدها بأسابيع فكرت ونبشت ستة أيام متواصلة بحثا عن وصف ل١٥ أيار، ذكرى نكبتنا جميعا وخسارتنا الخالدة، فخرجت بست كلمات: «نسيان الذكرى تماماً، أفضل من تشويهها».

نعم نحن نُشوه ألمنا، الشعوب في العادة تُشوه الانتصارات، أما نحن فحتى المجازر لم تسلم من إبداعاتنا التي ضيعتنا.

أتمنى أن تمر مناسبة ما دون أن يُبدع أحد في وصفها أو إحيائها أو التغني بها، أو حتى البكاء عليها، مناسبة واحدة فقط تبقى بعيدة لتظل بهيبتها في عيوننا وذاكرتنا حتى لو كانت مذبحة!

ولأنني من الذين ليس بإمكانهم تحمل شعور هائل من الضيق، اتصلت فوراً ببسمة: اسمعي هذا الوضع محزن وقاس، لم يعد بإمكان الشعب التظاهر الكامل ضد الاحتلال، صرنا نتظاهر ضد بعضنا، أعلام التنظيمات غطت على علم فلسطين، الكل يريد أن يصعد فوق المنصة ليصرخ مرددا علينا شعارات مضحكة، الناس تتشاجر وسط مدن تضيق على نفسها، في أوقات نحن بحاجة فيها لكل صوت ينطلق من حنجرة أصغر طفل لنوجهه ضد الاحتلال.

راحت بسمة كعادتها تطمئنني، قائلة: ألم تقل لي يوماً إنّ الشهداء يرتبون الفوضى التي يتسبب بها تجار القضية، وأنّ دمهم النازف عِطرُ هذه الأرض، وأنه يُعَوِض الرائحة الكريهة التي تنبعث من الخونة.

في آخر ساعات الليل، وجدت نفسي تحت تأثير ما حدث نهاراً، وأستعيد بعض الذكريات، وأكتب لكِ: تعود بي الذاكرة المُتعبة دوماً إلى أيامٍ وطنية أكثر من اليوم، لا أستطيع القول أنها كانت وطنية خالصة، لكنها أفضل بكثير من الوضع الحالي، فالناس في منتصف التسعينيات وحتى أوائل الألفية الثانية، كانت تحترم المناسبات الوطنية، وبالإمكان الاستدلال على ذلك بالأعداد الهائلة التي كانت تُحيي تلك الأيام، وبعلم فلسطين الذي كان يطغى على كافة الأعلام الحزبية، كان نَفَسُ الناس طيباً على البلاد.

في تلك المرحلة، وبالذات في عام ١٩٩٦، زار الرئيس ياسر عرفات مدينة نابلس، في إطار عِدة جولات على المدن المحررة بعد توقيع اتفاقية أوسلو، جولات شهدت حضوراً مخيفاً للناس وخاصة في مدينة جنين التي اشتهرت بفيديو طويل قُدِرَ يومها عدد الذين خرجوا فيه لاستقبال عرفات بأكثر من ثلاثين ألف مواطن، طالبنا والدي أن نذهب يوم زيارة عرفات والقيادة إلى نابلس مثل كل أهل القرية الذين ذهبوا في الصباح، حشرنا أبي وكنا تسعة في (فيات ٢٧) لجارنا أبي شادي وقال له: «روح يا أبو شادي، قول يا الله الولاد حابين يشوفوا أبو عمار».

لا أدري إن كنت أسعد أشقائي يومها ونحن نتكوم فوق بعضنا لأكثر من نصف ساعة في الطريق، وحين وصلنا المقاطعة بقينا لأكثر من ربع ساعة داخل السيارة حتى وجد أبو شادي مَصفّاً، فالأزمة لا يمكن تخيلها، «كل الناس جاية تشوف أبو عمار»، لا أتذكر إن رأيناه أم لا، كنا قصار القامة وأطفالاً ليس بإمكانهم حشر أنفسهم بين جسامٍ كثيرة لاقتناص الرجل الذي لم يخلع يوماً بدلته العسكرية ومسدسه الشخصي؛ حتى في مقر الأمم المتحدة.

عدنا منهكين دون أن نشعر كالباقين بالنصر، وكأن هزيمة داخلية لحقت بنا، في صباح اليوم التالي ذهبنا مع أولاد عمنا إلى الجبال بحثاً عن الميرمية. فكانت الحادثة حديثنا طوال الطريق، حتى أن أكبر أبناء أعمامي وكنا ندعوه هتلر، صعد فوق صخرة وراح يعلن علينا انطلاق الكفاح المسلح لتحرير قريتنا، ثم تحرير فلسطين.

يومها حرث علينا هتلر، أمرنا بتقطيع عِصِيّ من شجر الخروب وإلصاق السكاكين التي بحوزتنا على رأس العصا بعد أن مزق أحبال أكياس الميرمية، لاحقا طلب منا أن نتلثم بما تبقى من الأكياس، أمرنا بإحضار إطارات السيارات من المزبلة القريبة، أشعلناها وبدأنا نزحف قربها ونقفز فوقها ونصرخ: «فلسطين عربية». قضينا على ما جلبناه من طعام وماء، وعدنا إلى البيوت بوجوه شاحبة وسوداء من الدخان، أخذنا نصيبنا من الشتائم، عصراً ندمنا على تشكيل حزب الكفاح المسلح وفرطناه بعد العشاء.

في كل المراحل القذرة التي عشتها، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، لم يكن شيء يُهوِّن عليَّ مثل المطر، وحين لا يكون موعده، أجلس وحدي وأتذكره، لقد اعتمدت عليه بشكل كبير في تعديل مزاجي المكتئب بشكل شبه يومي منذ ولدت.

في طفولتنا كان الربيع تسليتنا الجميلة، نذهب إليه بعد المطر، أسبق إخوتي إليه، فأجده ما زال نديا، فأشمه. للربيع الذي يقطر منه المطر رائحة أعرفها، رائحة أحملها إلى اليوم، بعد واحد وعشرين عاماً على هُجراننا لبيتنا القديم، أصحو قبلهم، وحين يأتون نجمع صواني وطناجر رَماها الناس طرف الحارة، نقطف العشب، نقطعه بأغطية المعلبات، ونوقد ناراً تحته، بعد أن نأتي بحجرين ويسرق أحدنا كبريتة، في وقت لم تكن فيها القداحات منتشرة، وفي

الغالب كان يخاف من يسرقها لنا، فهو معرض للشك بأنه مدخن. كان للربيع رائحة أشعر أننا كبرنا عليها، حاولت هذا الشتاء أكثر من مرة تذوقها وفشلت، ثم اكتشفت أنني لم أرتمِ عليه كما كنا نفعل في الصغر.

حين أصعد الجبل وأقطف ورقة ميرمية، أشمها، أشعر بفلسطين كاملة بين يدي.

مرة جاء أصدقاء لي من الخليل، فقررنا أن نذهب جولة في الطبيعة ونصنع الشاي على جبل طاروجة، وحين عادوا لديارهم بعث لي رشاد: «عندما خلق الله الكون، كان الطقس والانسان من على قمة جبل طاروجة المُطلة على قرية اللبّن الساكنة في لوزةٍ من لوزاتِ التراث الفلسطيني، يُشعلانِ نارَ الثقافة من قبسٍ جاء من نجمةٍ تقع أسفلِ شجرةٍ تغلف كتابه الأول، وعندما كان الإنسان ينشغلُ في زراعة ما يسدُ جوعه كان الله قد أنبت له بين أقدامه نباتاتٍ عطرية يفوح عطرها عن بعد الكيلومترات، تُغنيه عن عطور باريس وسجائر لندن الملوثة، وعندما منحَ الله لنا هذه الأرض ميّزنا بها ولم يميّزها بنا، جبلٌ يُطل من نافذةٍ سماويةٍ على قريةٍ تحتضن الشمال كعروسٍ جمعت كل آيات الجمال، جبلٌ تحيطه أورامٌ سرطانيةٌ تنتظرُ العلاجَ القادم مما وراء الجبل، قمرٌ تزينُهُ أشجار اللوز، وتعطره شذرات الزعتر البري، وتُسرِح شعره أشواك البلوط المتشابكة كشبكة الصيد، وتغسل له يديه امرأة خرجت من يافا قبل ٧٠ عاماً ولا زالت تذكر مسجد البحر، ويحرسهُ شابٌ عشريني أخذ على عاتقه حراسة الجبل، ضارباً الخوف بقدمه والناس بقلمه، سلاحه القلم ودرعه الصمود، لا يشرب القهوة إلا على الفحم وأعواد الحطب، أما أنا فاستأذنته بكوب من الزعتر البري، الذي وجدته حين شممت رائحته، أما هو فذهب يبحث عن الميرمية ورافقته فلم نجدها قلت له عند الماء تجدها، وقفت

أحرس له بينما هو غارق في البحث حتى أتى صدى صوتٍ من أسفل الجبل يقول: وجدتها. فشممت رائحتها من أعلى قمة الجبل، ما أجمل الله يُعطينا دون أن نعطيه، يمنحنا جمال الطبيعة وروعة الكون، صنعنا شاينا وقهوتنا وزعترنا وأخذنا الكلام عن السرطان القاتل من حولنا والذي يتصدر أجمل مواقع الإنسان كرأسه وقلبه وصدره، وعن الجغرافيا وعن الوطن، لماذا يهاجرون؟ لماذا يغتصبون الأرض؟ لماذا تبيع المرأة أهلها مقابل زوجٍ ربما لم يمنحها قلبه؟ لماذا لا نتزوج عروبتنا وثورتنا وأرضنا؟ لماذا لا نصلي على البحر؟ لماذا لا نكتب ما يجول بخواطرنا؟ لماذا ذهبت الثقة؟ لماذا وُجدنا؟ أسئلة طُرحت على طاولة الحوار، كتب تنوقلت وأسماء مفكرين هنا وهناك، وحيرة رُسمت في وجوهنا الأربعة، قبر يُسرق من قلب الحارس، ومعبدٌ يُهجر في محراب الرب، وشجرٌ يُصلي للعودة، وكاتبٌ ينسج لوحتهُ القادمة بقلمه الذي يُصور ما لم تلتقطه عدسات المصورين، هنا هبطنا للتو كما طائرةٌ هبطت هبوطاً مفاجئاً، صلينا مع الشجر، بصقنا على الورم الجاثم فوق رؤوسنا، احتضنا ذاكرة اللوز من جديد، ودعنا يامن على أمل اللقاء.

أجبته على رسالته: ليس غريبا على رشاد أن يأتي - وإن لم يسبق له المجيء- من أقصى الجنوب، من دورا، الى أول الشمال، وهنا لا تُقدر المسافات بالكيلو متر، ظل صامتا ولم أسأله، كان يكتشف كل شيء بنفسه أو يحاول، كان يتذكر شيئا ما، أو يعيد رسمه في مخيلته، كان الوطن والموت والفقد والحنين حاضراً فوق قمة الجبل الذي يُطل عليّ منذ ثمانيةٍ وعشرين عاما، كنت أظن أني أخاف الجبال العالية والبعيدة وبالذات حين يتكاثف فيها شجر البلوط، حين كبرت فهمت أن الخوف كان حباً، مثل كل حبٍ ينمو بين شخصين، بحثنا طويلا عن الميرمية وكان ماء الشاي والقهوة

يغلي على مهله مثل عشق الوطن فينا، لا يُسرع أبداً، ثم وجدناها بين الشوك، فكل شيء جميل عندنا لا بد من أن يوخزك شيء آخر لتحصل عليه.

بطريقة ما كما أشتهي، بقيت ذلك الولد البري، الذي لا تُغريه المدن، وفياً لما تبقى من ريفنا، مرة قالت لي زميلة في العمل حين أحضرت كمشة لوز أخضر للزملاء: «أنت تُشعرنا برائحة الريف». ابتسمت طوال اليوم، كنت أردد في نفسي: أنا الطفل الريفي، سأكبر على هذه الحالة، أعيش عليها، وعليها أموت. الطفل الذي طالما تعلق بأغصان الخروب، ومد حبلين على لوزة صانعاً أُرجوحة، ولاحقَ أعشاش العصافير والحمام على الزيتون، الطفل الذي يُطل من فوهة بئر قديم ويرمي حجراً بداخله، ويصرخ ليسمع صداه.

عشت دائماً كما أنا، أقوى علاقة لي هي علاقتي بجدران بيتي، قد تهزأ مني الآن أو تقول: لن أكمل قراءة هذا المجنون، لكنك ستحتاجها يوما، ربما في الخمسين، سيحتاجها رأسك الذي تعب من دور المحيطين، الدافئة كما ظننت، لن تخترع لك ذراعين في وقت حزنك، أو خصراً طرياً لوقت فرحك، باردةً؛ لكنها دوما باردة، لا تتقلب، وإن سألتها من تكون، تُجيبك دون أن تفكر في خدعة تُظهرك جميلا أو قويا كما يشتهي سمعك، تُخبرك من تكون فقط! لن تخبرك أن زر قميصك موجود في زاوية الغرفة، لكن هذا أفضل من أن تخبرك أنك الزر المفقود في قميص أحدهم، وإذ بك الزر الزائد، لها صوت واحد هو: أنت كما أنت.

عشت كما يريد الوطن، ظننته سيتغير يوماً، الغريب أنه يركلني بقدمه على ظهري، على وجهي، على كتفي، على عينيّ، على

ظهري ثانيةً؛ يتقصد ظهري، هدفه أن يصيبني بالاعوجاج، وظهري لا يحتمل! وكلما حملت حقائبي للرحيل عنه، مثل طفلٍ صغير هرولت باكياً إلى صدره.

تُرى مِن ماذا صنع الله صدور الأوطان؟

اعتدت أن أُقول شُكراً، لأنها تُريح، تُحيّرني هذه الكلمة بوجوهها، نقولها لمن خدمنا ولِمن خذلنا، لِمن أتانا ولِمن غادرنا، لِمن رفع رؤوسنا ولمن أخفضها، لِمن مدّ كوب الماء ليُطفئ عطشنا، ولِمن رشقها في وجوهنا. شكراً القاسية حين تكون آخر كلمة في علاقتنا، فتُقال بغضبٍ لا يُرى جيداً في ملامحنا، تتبعها الابتسامة الصغيرة كنوع من السخرية على النهاية، شُكراً من الحلْق، لكن في القلب ما لا يُعَبَر عنه الآن، ما لا يُغير فيهم شيئاً، شكراً اللفظ والنبرة، شكراً تصلح للنهايات المؤلمة أكثر منها للتعبير عن الامتنان لشخص قربنا، شُكراً هي الكلمة العنيفة التي تختصر كل ما جرى ولا تُتبع ب: «...، على كل شيء». قلها شكراً جافة وغادر أنت أيضاً.

قلت لآسيا شكراً، توقفت قليلًا قبالة عينيها ورحت أقول أشياء صعبة، علها تدرك أن هذه النهاية ليست لنا، لا تليق بما كان.

في الآونة الأخيرة أصبحت أعيش على طريقة «بول شاوول»: أعرف ثلاثة أماكن: البيت، المكتب، مقهى زرياب.

كعادتي حين أدخل المقهى، قبل القهوة أطلب صوت ماجدة، ففي حال كان اللقاء عاطفياً، وجود امرأة مثل ماجدة الرومي على قيد الحياة، يُشعرك بشيء من الطمأنينة في هذا الزمن المُتوحش.

وفي حال كان اللقاء يتعلق بالبلاد، أطلب صوت جوليا، امرأة مثل جوليا بطرس تُذَكِرُك أن تحيا غاضباً، وأن لا تموت بسهولة.

قبل أيام جلست مع صديق في مقهى لم يكن فيه سوانا، مع أنه يقع في قلب رام الله، بالتحديد في قلب دوار الساعة، لم يأتِ إلينا أحد، بقينا مئة وخمس دقائق وحدنا، صاحب المقهى قدَّمَ لنا الشاي وذهب ليعتني بزرعه، تحدثنا في كل الأشياء، أصابته دهشة من انفعالي وعدم توقفي عن الحديث، لم أكن أنظر إليه لحظة التحدث، وهذه عادتي حين تكون المواضيع جدية، وكأنني أحدث نفسي، بالتالي لم أُعطِه مجالا ليقول أفكاره وتخيلاته، لكنه فَهِم في النهاية أنني كنت أتحدث بلساني ولسانه.

فَهِم أن الغضب على الأشياء التي تحدث، لا يقصدها بشكلٍ مباشر، إنما هو غضب على توقيتها، على وصولها إلى هذا المستوى وهذا الشكل، غضب على انحدار الصُّدف والأشخاص والمناسبات إلى هذا الحجم الذي لم نتصوره.

فَهِم أيضاً أننا نمشي إلى أشياء كثيرة دون قناعة، وأن الظرف ليس ظرف مواجهة مع كل تلك الأشياء، أي أننا لسنا جبناء، ولا راضين تماماً، لكننا نمر بمرحلة صمت، وهذا يُكذّب مقولة: «السكوت علامة الرضا».. فهِم أننا تماشينا مع أشياء كثيرة تصديقاً لمقولة: «اليوم اللي بجيش معاك تعال معاه»، فَرُحنا مع أيام وسنوات كثيرة.

فَهِم معنى «لا» الداخلية، الأقوى من «نعم» الظاهرة.

قبل أن نغادر بدقيقتين، عاد صاحب المقهى، ابتسم لنا وقال: نسيت أنكما هنا. ضحكنا بصوتٍ عالٍ، وقلنا بداخلنا: نَسِيَتنا أشياء قبلك، أشياء أكثر ضخامة، أشياء لم تعد تذكر من نحن. اعتذر منا، وسألنا إن كان غيابه أزعجنا، قلنا: تزعجنا المرحلة بأكملها، لا يزعجنا موقف.

رحت مجدداً أمشي شوارع رام الله وحدي .. قبل التواء شارع ركب ونزوله يساراً تجاه نزلة البريد، طل طفل يمشي وحيدا ويبتسم، وكأنه يُبَشِر بدهشة تمشي خلفه، فكانت صبية، تصعد من أسفل الشارع، وحيدة، تحمل حقيبتها على يدها، تميل بسمارها وطولها وتبسمها، كصوت نحبه.

لكن.. سيارة طائشة تمشي ببطء وتُعلي أغنية أفراح مصرية من الأغاني التي يصاب بها مستمعها بالصرع، شوهت علينا المشهد.

قبل مدة ذهبت لمقهى، على غير العادة طلبت شايا، وكأنني أحسست بوجود شيء غير عادي، جلست نصف ساعة، قرأت إحدى عشرة ورقة كنت قد طبعتها سابقاً عن موسيقيين، دفعت حسابي ومشيت تجاه الباب، في الممر الواصل بين الطاولة والمخرج، صافحني شاب يرتدي ملابس المقهى، سريعاً عادت ذاكرتي عامين للوراء، رأيته مرة، هذا الشاب أعرفه، سألني: عرفتني؟ قلت: آه عرفتك.

بدأ يهمس أنه يريدني بحديث هام وطويل، يهمس وينظر لجميع الجهات، شعرت أننا على وشك التخطيط لعمل خطير، أو سرقة ما!

بدا مرعوبًا من شيء ما، لم يقله، طمأنته أننا سنلتقي قريبًا، هدأ قليلًا وابتسم، لكن علامات الرعب لم تفارقه.. أمسكت مقبض الباب لأخرج، ثم عدلت عن الفكرة، وعدت إليه، كان يمشي في الممر الذي أوقفني فيه، ناديته وكان حزينًا، قلت له إنني لا أتدخل في خصوصيات أحد، لكنني مُصِرّ هذه المرة على معرفة ما الذي جاء بك من الجامعة إلى هنا؟ ولم كل هذا الخوف؟ ما الذي جرى حتى تكون هنا وعلى هذه الحال!؟

صمتَ بضع ثوان، وقال: لم تعد تحبني!

صمتُ مثله، وأخذني ما قاله لطاولة قريبة رحنا ننظر إليها سوية، وصارت اللغة بيننا هي العيون المُحبَطة، لا أعرف بمَ أخذ يفكر، أو أين وصل في استرجاعه، لكنني أظنه مثلي، تخيلها على يسار الطاولة تضحك، وتحاور بهدوء يجذب كل من يكون في جلستها، تشرب مثلنا القهوة ببطءٍ شديدٍ، وكانت جملتها المشهورة: «تُقاس سرعة شرب القهوة بمدى حبنا لمن نشربها معه».

تعرفت إليهما حين كانا يجلسان على طاولة ورائي، حدثاني أنهما واحد، ويتفقان مُقَدماً على شراء الكتب، من كل كتاب نسخة واحدة، لأنهما سيجتمعان يوماً للأبد، وتجتمع كتبهما في مكتبة واحدة.
بالصدفة كان كتابي معهما، وحين طلبا التوقيع عليه، قالا اكتب: إليكما...

دلال ومطر وسجن

كانت تَغمِزُ أنها ستمطر.

المطر أجمل حين تكون على وشك أن تُمطر، والحب أجمل حين نكون على وشك أن نُحِب. وفي ال١٣:١١ صباحا بدأ نزول المطر على رام الله والبيرة، قادماً من حيفا، فالراصد الجوي قال صباحاً: يبدأ المطر من حيفا. هذا اليوم هو يوم إجازتي الأسبوعية، طلب مني صديق أن ألتقيه في منطقة رام الله التحتى، ذات الأغلبية المسيحية، هناك تُذهلك البيوت القديمة، ببرنداتها ونوافذها ومداخلها وأدراجها وأشجارها، وحين تقترب تُصيبك غصّة بعدما تلمح اسم مؤسسة أو اسماً أجنبيا على بابها، فهذا ما يفعله الأجانب في الوطن، يستولون على تراثنا وإرثنا، بحجة أنهم يحفظونه لنا ويعلمون شبابنا ويجدون لهم فرص عمل وتطوع في بيوت يساوي الحجر منها دولة مُشتريه.

في الطريق أخذت رواية لم أسمع بها من قبل «النحت في صخور الألماس»، ولا باسم كاتبها «ميسرة الهادي»، ما شدني عنوانها أو

غلافها، لكنه طبعي في اقتناء الكتب، فكم من كُتاب وشعراء وأدباء ليس لهم علاقات اجتماعية واسعة، ولا علاقات مع صحفيين أو ناقدين أو أصحاب أعمدة في الاعلام، أو علاقات بمراكز ثقافية وندوات شعر، فيظلون بعيدين عنا، إن لم نبحث نحن عنهم، وفي المقابل كم يُدّوخنا ويدوش رؤوسنا أصحاب الأقلام الكبيرة في كتاباتهم عن أصدقاء لهم سرعان ما نكتشف حين نقرأ لهم أن ما كتبوه يصب في خانة المصلحة والعلاقات الشخصية والمنفعة المتبادلة، كم رمت الصحف والمجلات والمدونات في وجوهنا مقالات ونصوص لأقلام لا تستحق كل ذلك الضجيج! لكنه الحظ والحياة حين تُقرر عن الجميع، من يكون في الواجهة ومن يُطمر.

في طريق الذهاب قرأت ٤٣ صفحة، وفي طريق العودة ٤٨ صفحة، كتاب بسيط المعاني والسّرد، لا أريد أن أدخل في تفاصيله، لكنّ أكثر ما لفت انتباهي فيه هو أنّ الكاتب يشرح لنا الصلاة بطريقة مُبسطة وربما مُقنعة أكثر من طريقة الشيوخ، وفي الفصل الذي سبقه يتحدث عن الجنس بشكل هادئ ولائق.

التقيت بسائق -جار لي-، على خط قلنديا - الرام، يتذمر من قلة الشغل والحال المادي الصعب، فعاقبته بطلبي أن يحضر لنا قهوة على حسابه، ثم تركته ومشيت إلى صديق في الحسبة يبيع بندورة، مازحته: أنت الآن شبه صَراف، قال: «اللي بدري بدري»! هذه الجملة بالذات لا تحتاج من قائلها أن يسرد شيئا بعدها، فهي كافية لتوصل لك حاله.

حدثني عن أنه يعمل لدى تاجر كبير وأنه لو وصل سعر كيلو البندورة إلى ألف شيكل فإنه سيبقى على حاله. اشتريت له قهوة، ثم وصلت الساعة ١١:١٣ وهطل المطر بغزارة، هرب الناس، هربت إلى قهوة صندوقة، أخذت حصتي وعُدت لقريتي، في

الطريق وبشكل خاص في عين سينيا كان المطر يُحيل ورق اللوز إلى أخضر غامق.

وقتها تذكرت يوم كتبت لصديق أصبح المطر يؤذيه بعد رحيل حبيبته: لا تجعل المطر شخصاً مضى، عِشه أنيقاً؛ قل له: أحبك يا مطر، دون سوابق.

أميل برأسي على الشباك الذي تنقره حبات المطر الغزيرة، وشريط الذكريات يدور، رحت أستعيد يوم كنا نمشي في شارع خلفي من شوارع بيرزيت القديمة، أَطَلَ عامل بناء من الطابق الرابع وصَفّر، هنا يصفرون في حالتين: مرور جيشٍ أو فتاة. ضحكنا عليه وأكملنا مشينا حتى مفترق قريب، وقفنا متباعدين مسافة ثلاثة أمتار، فهنا لا تعرف من يمر صدفة، فيلقي القبض عليك وأنت تشرب قهوة مع صبية. لا تدري كيف يروي قصتك بعد ذلك، سيقول كل ما لم يحدث بينكما.

مرت سيارة أجرة، أشرتُ لها فتوقفت عندك، صعدنا، همست لكِ بأنني سأدفع عنا، تبسمتِ موافقة، همستِ لي أن ننزل على إشارة المقاطعة، ونكملها سيراً على الأقدام حتى عمارة الماسة، كان الوقت عصراً وكانت على وشك أن تُمطر، لكننا تقدمنا على المطر برُبع ساعة، وافترقنا قبل هطوله.

بعد العشاء نزل المطر بقوة، فكتبت لكِ:

لو صرت لمرة واحدة، راصدا جويا، سأبث للعالم: طقس الليلة مائل إلى الحب، إليك.

كان لا بد أن أمسك يدي بيدي، وأمشي بي.

عشت هذا الشتاء وحيدا، بعد أن أوقفت علاقتي بدلال، لم يكن مسموحا لنا «الحب»، لكننا خلقناه و عشناه قويا لعام ونصف، وكانت أجمل أيام العمر، عشيقة تُقّدر عشقي المجنون للمطر، فأرسلت لي أكثر من مرة في بداية الشتاء تطلب أن تكون بجانبي، وكنت أرفض، رغم حاجتي لها، فالبقاء معها وفي حبها كان خطراً حقيقياً على حياتنا، والمسافة بيننا مستحيلة، لا شيء يقدر على جمعنا سوية، ثمة مستحيل ما في كل قصص الحب العنيفة، لكن معنا كانت المستحيلات عِدة، قدرت أن لا نكون معاً لكنها لم تقوَ على منعنا من الشعور أننا معا.

ولأن الحب الذي يعترضه أكثر من مستحيل وأكثر من فخ يُصبح خطراً على أهله، قلت لها لا يمكننا الاستمرار، تعالي نأخذ وقتا نستريح فيه مِن همنا الكبير، من حبنا، ثم نعاود، سنعاود، لن نكون يوما وحدنا دون خوف، لكننا سنظل نرفض أن تخنق الظروف هذا الحب الذي عَثَرَ علينا بالصدفة، حين قرأتِ في مجلة محلية نصا كتبته عن فقدان الأب، فقررت أن تبحثي عني وتجديني، وحصل ذلك، قُلتِ منذ اللقاء الأول: جئت لأحبك!

قُلتُ لكِ إني لا أخشى ألا يحبني أحد، أعرف أشخاصاً ولدوا وعاشوا وكبروا وماتوا وحيدين .الأمر لا يتعلق بالحب، فالحب يتذبذب، يزيد، ويقل، ويدخل أسوأ ما قد يحدث له وهو الملل.

وربما لم يجدوا من يُحبهم، وهذا أيضاً يحدث، أن يولد شخص لم يتمناه أحد، ليس لعيب فيه، إنما قدره. لكنك لا تراهم، فحين تكون عاشقاً تعتقد أن الكل مثلك عاشق.

الأمر يتعلق بالخوف، الخوف أكبر من الحب، أن يخاف عليك

شخص، هنا يصبح للحياة قيمة أكبر، فأحدهم لا يعنيه فقط أن تكون القُبَعَة على رأسك جميلة ولائقة، يعنيه أن لا تسقط شعرة أخرى من رأسك، هذا الذي يحتاج إلى كل شيء فيك، الذي يُفكر بحمايتك من أي مرض قبل أن يفكر بالمشفى الكبير والمتخصص الذي سيدخلك إليه إن مرضت.

لا تخف ألا يُحبك أحد، خَف أن لا يخاف عليك أحد.

اشتريتُ جاكيتاً زيتيا، وثلاثة كتب، أجمل الهدايا هي تلك التي تشتريها لنفسك، وتُهديها إياها. حتى في الكتب، أجمل كتاب هو ما تشتريه أنت، لأنك اشتهيته.

أنت تعرف نفسك أكثر من الآخرين، وتعرف ما يُفرحها، حتى حين تشهق لحظة تمزيق أغلفة أشياء جميلة وصلتك، ربما تتبدل الشهقة يوما ما، وتبرد.

كم من شخص أهدانا ورحل، وكم من أناس انتظرنا هداياهم ولم تصل، وكم من أناس خُدعنا بهداياهم! أنت هدية نفسك.

المطر أجمل من الثلج، صوت المطر على النوافذ أشهى من تساقط الأبيض، التقاط صورة شخصية لحظة بللٍ أشهى من التقاطها لحظة سكينة تامة، وهذا أيضاً مشهود له في صور الحروب، حيث صور الخوف والجمود أبقى من صور البنادق المنتصرة، وهي تطلق الرصاص أو ترقص بأيدي أصحابها. الحزن أعمق من الفرح، الخسارة أعمق من الهزيمة.

هناك أيضا مطر آخر لا تتوقعه، تُسقطه أغنية كانت يوما بينكما، أو شجرة تُحبانها، نوع فاكهة، شارع في مدينة لستما منها، أو حين

كان يقول: «أحب البني عليك، تبتسمين وتقولين: وأحبه عليك»، أو رائحة القهوة حين يُفتح كيس البُن أول مرة.. إنه مطرك الداخلي.

إضافة إلى الليلة الأولى للعيد، والرحلة المدرسية، فإن انتظار بدء تساقط الثلج، من الأشياء التي لا ننام من أجلها، نورثها من أيام الطفولة، في العيد نُجن فرحا حين تبدأ التكبيرات، وفي الرحلة تنام قربنا حقيبة الأشياء المسلية التي جهزناها، ثم يأتي الثلج، يُقعدنا على الشبابيك، نغفو ونصحو في منتصف الليل لنتأكد أنه مازال يتساقط، نُوقظ بعضنا: قوم قوم شوف الثلج، ننام ونحن ننتظر الصباح الذي سيكون فيه كل شيء أبيض تماماً.. نتزاحم أنا وإخوتي على الباب، نبتسم تلقائيا «يا الله.. ثلج ثلج..»

الثلج رائع على قريتي، وعلى كل العالم، لكن العالم بأكمله لا يُساوي مشهد النَدف الأول فوق القدس، الثلج على القدس يأخذ فكرة لا صورة فقط، أقول للأصدقاء هناك إنني أكرههم، أكره أنانيتهم فيها، أعلم أن ذلك يحدث رُغماً عنهم، فالاحتلال الذي لا يسمح لنا بأن نقيم أي علاقة بهذه المدينة، يُريد لجيلي وللأجيال القادمة أن تبقى القدس حلماً صعبا، أين يحدث هذا في العالم؟ أن يتمنى شاب شُربَ قهوته الصباحية في عاصمته؟ هل يخاف الاحتلال أن أعود يوما لبيتي وأكتب نصاً بعنوان «قهوتي على درجات باب العامود»! لا يريد لنا أية صلة بالمدينة، أية ذكريات مهما بدت بسيطة، مع ذلك فهو لم يهزمنا إلى الآن، لأنني ما زلت أكتب لقدسي، التي زرتها مرة في حياتي، في نيسان ١٩٩٨ ومنذ تلك اللحظة لم أرجع منها، كل الذين يذهبون إليها، فقط يذهبون.. القدس اتجاه واحد، ذهاب!

في ثلجات طفولتنا، كُنا أكثر شقاءً، كانت الجارات يُخبئننا في بيوتهن، يُمسكن أيدينا، ويفركن أصابعنا، ويُطعمننا المندلينا، أو

بطاطا مشوية، ويسقيننا الشاي في حال كان جاهزاً، وفي معظم الأحيان بارداً، جارتان أو ثلاثة يطردننا، بعد شتائم أكثرها تكراراً: ليس لكم أهل؟!

الآن كبرنا، ولم يعد أحد يُمسك أيدينا، أو يفرك أصابع بردنا، نشرب الشاي الساخن جداً وحدنا.

الثلج الآن يسقط على نعنع النافذة وزعترها، هذا المشهد لا يعني شيئاً للجار الوقح في المستوطنة القريبة، فهذه الرائحة لا تُعيده للجدات، والطابون، وأقراص السبانخ، وشاي الموقدة، والأمثال الشعبية، لا تُعيده لشيء.

أيها الجار الوقح: الصورة الحاضرة بحاجة لتاريخ لتصبح شهية! أعلم أنك لن تفهم هذا، وأعلم أنك لا تحس يوماً أن هذا الوطن لا «أبيض» بلون الثلج، ولا «أسود» بلون الحزن.

وطنٌ «أخضر» بلون الزيتون، تأتي وتذهب كل الألوان وكل الروائح وكل المواسم، ويبقى الزيتون.

لولا الثلج الذي حشرني مع جدتي في غرفة لَمّا عرفت أن جدي كان يعمل لدى والدها في مخبزهم بواد النسناس قبل عام ١٩٤٨، فأحب ابنة صاحب المخبز - جدتي -، التي كانت أهم من كل الكتب التي قرأتها، عشت معها ١٤ عاما، أي نصف عمري إلى الآن، علمتني كل شيء، دون أن تدخل التكنولوجيا السريعة والمذهلة فيما تقدمه لي، علمتني الأمل والقوة والخوف والخشية والحب والحزن، علمتني كل شيء إلا الكراهية.

وُلدَ جدي ومات قبل الجدار، في الزمن الذي كان ينام فيه الرجال مبكراً، ويستيقظون مبكراً جداً..

كان فلاحاً كباقي الفلاحين، يعيش مع امرأة واحدة، في الغالب تعيسة مثله، ولا يتحدثان عن الحب، وربما لم يتحدثا عنه طيلة حياتهما، لكن كانا سعيدين جدا.

وأطفالا يتوزعون خلف الأبواب حين ينهرهم غاضباً إن نسوا إطعام حماره الرمادي، وكثيراً ما اختبأ اثنين أو ثلاثة خلف بابٍ واحد لكثرتهم وقلة الأبواب.

لا أتذكر من ملامحه الكثير، كان مدخناً شرساً، ويحب صلاة الفجر، ويقول لجدتي إنه يفكر بتبديل طلاء السقف من الأخضر القاتم إلى الأزرق المبهج، ثم رحل فجأة!

لم يكونوا قديماً يفكرون بأشياء كثيرة، أشياء مُعقدة، ولا يقضون حياتهم هرولة خلفها، كانت الأشياء تحدث ببساطة كبيرة؛ كنجاح موسم الزيتون أو حضور الندى لإتمام الحصاد، أو توفر القماش اللائق لِتَخرُجَ آخر بناته من بيته بهية كما رآها في حلمٍ سابق، كانت الحياة صعبة جداً، وجميلة جداً.

تركوا لنا الأولى وذهبوا مع زمنهم!

لم أعد أبتسم للثلج، منذ خلعه شجرة التوت الكبيرة والعتيقة جدا في وسط قريتي قبل سنتين. كانت محطة الراحة لأصدقاء الطفولة حين كنت طالبا في المدرسة، وانتظار الطالبات العائدات مثلنا من صفوفهن.

كل شجرة هي ذاكرة. الوطن لدي هو الشجر، هو هذا السنديان والزيتون واللوز والليمون والرمان ...حتى ورق الخس والفجل، وأسقف العِلّيات والمنازل الأثرية وبلاط الأزقة الأسود من كثرة المارين، دعه أسود أحبه أسود، أحب رائحة الأجداد عليه.

ربما مللت من انقطاع التيار الكهربائي أربعة أيام متواصلة، لكنني عشت لحظات أشعرتني أننا في العام ١٩٢٠، مشهد القرية الصغيرة ببيوتها المتشابهة دون إعلاء بعض منها أو اختفائه، الفوانيس الصغيرة المُضاءة بالكاز، الهدوء القوي بعد آذان العشاء المرفوع بالصوت الطبيعي، نوم الناس المُبكر، حديث ما تبقى من الجدات والأجداد، العودة للطعام البدائي، رؤية من غيبتهم مسؤولياتهم وأعمالهم وتفقد الجيران، سماع أحوال الناس بين الشاكي والسعيد والمتأمِل والمتألم... كل هذا لم يكن ليجري لولا هذه العاصفة الثلجية (٢٠١٣)، غير المعهودة منذ زمن طويل.

كانت جدتي لطيفة كلما سافر أحد أقربائنا إلى الخارج طلبا للعلم أو العمل تطلب منه أن يعتني بدفء جسده جيداً، وتطلب منه أخذ كميات كبيرة من الملابس الثقيلة.

هل هو شغف الفلسطينيين بالحرارة، أم شعورهم الدائم بالبرد؟!

الغربة في بدايتها ونهايتها برد لا أكثر، المال والعلم يأتيان بقليل من الدفء لكن معانقة الأهل هي الدفء الكبير والدائم. وجودهم، لحظاتهم الحلوة، همومهم، تقلباتهم المزاجية، بمعنى آخر قُربهم مهما كانت نكهته.

حتى وهي تودع جارنا أبا أحمد الذي رحل إلى الكويت عام ١٩٧٧ طلبت منه أن يسافر بملابس أكثر دفئاً، فرد عليها أنّ الكويت طوال السنة تظل حارة ثم ضحك من خوفها عليه.

في نهاية التسعينيات وبالتحديد منتصف شباط سافر أحد أبنائها لأيام قليلة إلى هولندا، دخلت عليها تُقلّب برموت التلفاز فتفاجأت أنها تبحث عن محطات هولندية، ثم تبسمت وهي تتحدث لي عن سبب بحثها وقالت إنها ليست مجنونة إنّها تريد فقط أن ترى إن

كان الجو لديهم عواصف وأمطار كما هو عندنا.

قبل شهر من الآن في ذروة انقطاع الكهرباء لأيام متتالية بسبب العاصفة الثلجية الأخيرة على فلسطين والدول المجاورة حدثتني عن عجوز ماتت من البرد قبل ستينَ عاما، بينما لم تحدثني عن الشهداء أو الأموات الأخرين بكل طرق موتهم، ذلك لأنّ الموت برداً قاسٍ جداً ويبقى في الذاكرة كقهرٍ عظيم.

قبل أعوام قليلة كان جدي على فراش الموت، كانت نهايات كانون الثاني، والبرد على أشده، بمنتصف الليل تساقط الثلج على نافذته القريبة، ناعماً ومدهشا، كان قريباً جداً من الموت، كانت لحظاته الأخيرة، فابتسم، ابتسم للثلج وكأنه عاد طفلا، لم يكن له صوت، وإلا لقال أخرجوني ألهو به قليلا، ثم مات فجراً، مات مبتسماً كما اشتهينا.

على واجهة الغرفة الجوانية لبيت العائلة الكبير صورة مصابة بكل أنواع التشقق والاهتراء، جد أبي وفلاحون آخرون، تعود لبداية السبعينيات، تحت شجرة خوخ، حَدقتُ فيها: أيها الأجداد الشجرة قُطعت.

والقمح لم يعد يأتينا طويلاً وراقصا، والقُمباز والسّروال على وشك الاختفاء، وأنت أيها الجدّ القصير –في طرف الصورة-، الربابة انتهى عصرها، كما انتهى عصر السّلة، حقيبة الجدات والعمات والخالات حين يذهبن إلى الأسواق، ولأنني مُدلل جدتي، فقد وعيت مُبكراً على خان التجار والبلدة القديمة في نابلس، في أوائل التسعينيات كانت المرة الأولى وكنت في السادسة أو السابعة من عمري، كنا في شارع حطين، والذي يعتبر الخط المتقدم والساخن في المواجهة مع الاحتلال في تلك الفترة، أذكر بصعوبة بالغة يومها أنّ عددا من الجنود مروا بسرعة، بعضهم يحمل خوذته في

يده، أمسكتني جدتي بشدة وبدأت تردد: «وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون»، وهي ذات الآية القرآنية التي تقرأها كلما رأت الجيش يقتحم قريتنا، الآية التي قرأتها وهي تَشُقُ شباكها قليلاً عند الثانية من فجر السادس من شباط ٢٠٠٩ والجنود يركلون باب بيتنا بأقدامهم بقسوة.

الثامن من شباط، أي بعد يومين من الاعتقال في عوفر، يقودني إلى قاعة المحكمة العسكرية في الجلمة أسفل الكرمل -مُكبلاً- شرطي اسرائيلي، عَبرَ ممرات ضيقة محاطة من الجانبين والسقف بألواح حديدية ضخمة، فتبدو كقلعة مُحصنة، هذا لا يهم فالأمور لن ترهبك أكثر مما تعرضت له من قبل، قبل الدخول من بابها الرئيسي يطلب مني الوقوف والاستدارة على الحائط، كان شرطيا صغير السن ويبدو هادئاً يُمازح زملائه المارين ويسألني من أين أنت؟

ثم يطلب مني الاستدارة للحائط مرة أخرى، يسألني ماذا تعمل، ثم يطلب مُجدداً الاستدارة، ثم يسألني سؤاله الأخير: هل تزعجك الاستدارة للخلف؟ أجيب: لا، كله وطني، ما فوقي وتحتي وأمامي وخلفي وما أُبصره ومالا أُبصره!

يتحول هدوؤه لغضب، ربما أغراه في البدء هدوء ملامحي.

لأول مرة أدخل قاعة محكمة عسكرية، رجلان وامرأة يرتدون لباسا عسكريا ويجلسون خلف طاولة، أقف أنا «المتهم» أمامهم كسارق، هنا فقط يقف المسروق أما سارق هادئ ومبتسم وراضٍ عن عمله، أمامهم قطع مُشكلة من الكعك، بينما لا يُقدم لنا في زنازينهم العفنة إلا مربى فراولة وزبدة وبيضة مسلوقة، وجبة لا تكفي طفلاً، ثم يأتيك الشاي بعد دقائق من الإفطار، يُسمى شاياً لكنه لا يُشبهه، ماء وسكر فقط.

يتمازحون بينهم، بينما أجلس منذ أسبوع وحيداً مع أربعة جدران كئيبة، يَتلُون عليّ التهم الموجهة إليّ والمكتوبة على ورقة، ثم يسحبني الشرطي مرةً أخرى للزنزانة، ويدخل آخر، وآخر.. على مدار خمسة وثلاثين يوماً دخلت أربع مرات، فيما نسميه محاكم تمديد التوقيف، قبل أن ننقل إلى السجون.

في الزنزانة لا يعطونك قلما، لا جريدة ولا راديو، وشبه قهوة لمرةٍ واحدة في الأسبوع.

وكان عليك أن تقاوم كل هذا الحرمان، وأن تنجو، وفي كل صباح تقول لمن ينادي على باب زنزانتك: كم واحد هون؟ أنك كبرت يوماً، وأنك ستعد مثله يوما ما، أشجار وعصافير الكرمل.

في اليوم الثاني من الحياة في الزنزانة، وكانت تحمل الرقم (٧)، رسمت دالية عنب، بربع فلقة صابون، فهذا ما يحدده الاحتلال، ربع فلقة لكل موقوف. ما دمت تحت الأرض وبين أربعة جدران، ولا حيلة لك بجلب انسان واحد يؤنسك، تلجأ إلى الرسم، ولو بأصابعك العارية، في الفضاء المحدد لك.

في صبيحة اليوم الثالث تخيلتها اخضرت، أحمل بيدي حفنة ماء وأرشها كل صباح، وفي المساء أجلس تحت الجانب الذي رسمته فيها، متخيلًا ظل أوراقها.

في الزنزانة رقم (٨)، الأسبوع الثاني لي في التحقيق، الزمان هو الأسبوع الثالث من شباط ٢٠٠٩، لم يكن من وسيلة للتغلب على هذا السجان إلا التفكير بأشياء جميلة، كالحب، في تلك المرحلة لم يكن في البال إلا فتاة العلوم، وجدتني أستعيد تفاصيلها كاملة، الكتفين، الساقين، مشيتها، أحبها أكثر حين كانت تمشي.

هل يخرج الحب من الزنزانة؟ ما دام هناك صوت مطر، يأتي من

مكان لا تستطيع تمييزه، فأنت تحت الأرض، لكنك واثق من أنه مطر.

بعد دقائق تشعر أنك مجنون، وأن لا صوت إلا القهر مكتوماً، ترفع رأسك لسقف الزنزانة: يا الله أهذا مطرك؟ ولا أحد يجيبك.

تسأل قلبك، ما دامت الأذن حائرة، تقترب من الجدار الأيمن بعد أن قفزت صوب كل الجدران، يشتد المطر في الخارج، فوق حيفا وكرملها، ويسقط على حفرتك، زنزانتك -رقم ٨- في الجلمة، قوياً كإجابة في وجه من نحب بعد سؤال عفوي: «أنا المطر جئتك.»

بعد ساعتين أو ثلاثة، في الزنزانة لا تعرف الوقت بالتحديد، لا ما مر منه، ولا ما سيمر، لكنك تُقَدِر، في محاولة أخرى منك لتقول للجدران والمحقق والدولة التي تحاربك بمفردك: أنا قادر.

ستُقدر، وتسأل الشرطي «السهير» بعد أن يجلب لك وجبة الغداء النتنة: هل كانت تمطر قبل ساعتين أو ثلاثة؟ ولن يرد.. تسأله حين يعود لأخذ الصينية: هل أمطرت نهار اليوم؟ ولن يجيبك! حتى الاجابة عن تساؤل بسيط كهذا، جريمة، فالسجان يعتقد أنّ الإجابة ربما تريحك نفسيا؛ فيبقيك دونها.

وتبقى دون كتابة، فأنت لا تملك وسيلة لذلك. يقهرك أن المطر لديك حالة لا تقبل التأجيل والمماطلة في التعبير عنها. قد تكتب عن المرأة التي تحبها الآن، بعد أربعين عام. لكنك لا تستطيع تفادي كتابة المطر الذي مضى، والذي يسقط الآن، والذي سيسقط غدا.

المطر لديك لا يؤجل، يُعاش بلحظته.

في الزنزانة رقم (١١) وهي من الزنازين التي يُجمع فيها عدد من الأسرى في المراحل الأخيرة من التحقيق، أو حين انتهائه تماماً،

صادف يوم ميلاد شاب من منطقة راس العين، في نابلس، أعتقد أنه حينها وصل عامه الثاني والعشرين، وكان معنا شابان من مخيم العين/نابلس، زَيّنا الزنزانة ببقايا أكياس النفايات، بطريقة الشّد، حتى تطول أكثر، قمنا بربطها ببعضها، ثم ربطها بلمبات الإضاءة في السقف، كان معنا أربعُ حبات برتقال وزعوها علينا العصر، صنعنا من قشورها اسم الشاب والسنة التي وصل إليها، وبدأنا نغني بصوتٍ عال، سمعنا السُهير، نظر إلينا من الطاقة الصغيرة في الباب «الشِناف»، وقال: مبسوطين؟ طيب.. نادى أربعة من الشرطة، أخرجونا إلى حمام الزنازين، الذي كان متر ونصف * متر ونصف، حشرونا فيه، كُنت في الزاوية، والدش يقطر قطرات باردة على رقبتي، في ليلة من بدايات آذار الباردة، قال ضابطهم: ناموا هون الليلة يا كلاب.

في حين أننا لم نكن قادرين على مجرد الوقوف من ضيق الحمام، بعد ربع ساعة عادوا يصرخون من بعيد، إضافة لصوت المخشير لتخويفنا، فتح أحدهم الباب وقال: هالمرة سماح بس لا تعيدوها.

جلسنا ثلاثة أيام سوية قبل أن يبدؤوا بنقلنا إلى السجون، نقلوني عصراً إلى سجن مجدو القريب، البداية كانت من قسم «١٠» المُفرغ من الأسرى، يسمونه «المِعبار»، غرف كبيرة مهجورة، أسقفها عالية، يأتي إلى بعضها الحمام، أدخلوني إلى إحدى غرفه، فيها نافذة صغيرة جداً وعالية جدا، لم أستطع الوصول إليها او النظر من حولي، جلست عدة ساعات وحدي على الأرض، غرفة واسعة ليس فيها إلا صدى أنفاسي وخطواتي البطيئة، بعد ساعتين أخذوني لقسم «٣» ووضعوني في غرفة رقم «١١»، والتي سأفهم لاحقا أنه في جميع الاقسام غرفة للمؤقتين، ولم أكن أعلم أنها أيضا تُسمى المعبار، وغرفة تجمع أسرى من الفصائل كافة، لم أكن أصلاً أعرف أنّ الأسرى منقسمون! كل غرفة تحوي شبانا

من فصيل واحد، والأقسام منقسمة، كل قسم يتبع مدينة معينة.

كان القسم ٣ تابعا لمدينة طولكرم هكذا قال لي شاب في غرفة رقم ١٠، حين وجه إليّ أسئلة عبر طاقة الباب.

أرد عليه من طاقة بابي المجاور بأنني جائع جدا، وأريد أن أُدخن، قال لي أنهم يُعدّون العرايس.

للحظة توقعت أن هناك أفران في الغرف. قبل أن أكتشف لاحقا أنّ الغاز هو البلاطة! قطعة صغيرة من الحديد على شكل دائري توصل بالكهرباء فتعطي إحماء وسخونة لسقفها المقشط قليلا، تحتاج غلاية القهوة لتنضج عليها لأكثر من عشرين دقيقة!

على عصاة قشاطة يمد لي من طاقته قطعتين من العرايس، لكنني لم أتمكن من الوصول إليهن، حاولنا عشر مرات ولم نفلح، كانت الساعة بحدود العاشرة والنصف مساء، فقال لي أنه بعد قليل سيمر شرطي يجوب ليلا للحراسة وسيطلب منه أن يعطيني اياهن، وحدث ذلك بعد نصف ساعة تقريبا وبعد مية رجاء، وأوصل معهن سيجارتين لكن بدون قداحة! يا لفداحة الخسائر هنا، لو أنني بقيت بدون سجائر لكان أفضل من أن أحصل عليها دون أن أتمكن من إشعال واحدة. لكنني لم أستسلم فالشرطي يمر كل ساعة، في الثانية عشر مر فطلبت قداحة، رفض، فمددت له السيجارة ليشعلها لي من الغرفة المجاورة، فاستجاب بخشية، أخيرا صار لدي سيجارة مشتعلة، أشعلت منها السيجارة الأخرى، ونمت مرتاحا.

في ٢٠٠٩/٦/٢٩ كان جواد على السماعة المحاذية في قاعة الزيارات في مجدو، في العادة آخر دقائق الزيارة تميل فيها الوجوه إلى الابتسام الحزين والهادئ، لكن جواد ضحك في آخر دقيقة بصوتٍ عال، مرئي ومسموع، كرر ضحكته الملفتة، قلت له: على

ماذا تضحك بكل هذه الغرابة؟ قال: تعال اسمع الحجة شو بتقول، بدها تطبخلي مقلوبة وتلاقيني فيها على سالم!

حين رجعنا إلى القسم، كالعادة نبدأ الحديث عن الزيارات، كان حزينا وصامتاً، قلت له: تكلم، ليست عادتك.. قال: ما اعرفت شو أرد على أمي لما قالتلي عن المقلوبة، شكلها ناسية إني محكوم ١٠ سنين، ما مضى منهن إلا سنتين، يمكن مفكره إني مروح بعد أسبوع ولا شهر وصارت بتفكر بأزكى طبخة بحبها.

هنا سكتنا جميعا.

الدنيا أيار، يتم نقلي لقسم الخيام، القسم ٧، والذي قُسم الى ٧ و ٧١، كل قسم ستُ خيام، وفي حدود الخامسة مساءً يصير القسم الواحد ثلاث خيام، يفصل بينهما باب حديدي. في الخيمة ١٩ بُرش، رائحة نتنة تأتي من خلف الشيك والأسوار، يُقال أنها من مزارع أبقار قريبة، مرة استرقت النظر من شقوق صغيرة مربعة ومشيكة تكاد تكون قفص فئران، رأيت بضع غرف قديمة، لا بد أنها كانت تتبع السجن ولتهالكها تم التخلي عنها، هذا لا يعني أن السجن ضاق بالمساحة.

أخذتني تلك الغرف إلى أشياء حدثتني عنها جدتي حينما كانت تزور زوج عمتي عام ١٩٩٤. في قسم الخيام ألعب النرد على الطاولة اليتيمة للقسم، نتشاجر ونتسابق عليها.

أقوى وأجمل لحظات السجين هي صلاة الفجر، ماء الوضوء على باب الخيمة بارد على اليدين، دافئ على القلب. يرفع شاب صوت: الله أكبر الله أكبر على طرف الخيام، فيلتقي السجين مع الله، لقاء لا تُغبشه أجهزة التشويش المزروعة في كل زوايا السجن، ولا تراه كاميرات المراقبة، ولا تصده الأسلاك الشائكة والكلاب والأبراج العسكرية.

أنظر إلى الجندي الذي يعتلي برج المراقبة وهو ينظر إلينا، بإمكانه أن يقطع الطريق علينا خلال زيارة الأهل، كأن يسحب سماعة الهاتف في الثواني الأخيرة، أو يمنع الأهل في الأصل من الدخول للقاعة بحجة أن الأسير معزول في الزنازين ومعاقب هذا الشهر، وبإمكانه أن يقف فوق رأسه خلال زيارة المحامي كنوعٍ من التضييق، أو يجول بأقدامه الرّخوة بين أسّرِة النوم والساحات كاستفزاز وهيمنة، لكنه لن يجدَ مكانا أو وسيلة في لحظة الفجر، ليعيق الانفراد التام الهادئ، الحاصل مع الله.

في صباحات مجدو كان الرفيق عميد في كل صباح يدعوني لشرب القهوة في خيمتهم، الخيمة رقم (٤) - خيمة الرفاق-، وكان بُرشه يقع على طرف الخيمة، ٩٦ صباحاً وعميد يكررها يومياً: تعال نشربك قهوة عنا. ويأخذني لمكتبة صغيرة في الخيمة (٥) -خيمة الجهاد الإسلامي -، ويقول لشاب من صيدا: شيخ دير بالك عليه.

لكني لم أجد الكتب التي كُنت أهوى قراءتها في ذلك الوقت. السؤال: من أين أتت محبة عميد؟ حين وصلت القسم ٧١ الذي فُصل عن القسم الأصل والكبير (قسم ٧) بعد شكوك إدارة مصلحة السجون -الشاباص- حول وجود هواتف يُخفيها الأسرى، ومشاكل داخلية بين الأسرى والفصائل، وقف بي الشرطي على المدخل وسأل الحارس حول العدد في كل قسم، فأخبره أن القسم ٧١ ينقصه أسيرين، فأدخلني بعد خمس دقائق إليه.

خيام متلاصقة جدا، باردة جدا، مع ساحة للمشي وممارسة الرياضة لا يتجاوز طولها ٢١ متر وعرضها ٨ متر، في اليوم الذي وصلتها فيه كانوا يُخرجون طاولة التنس والتي كانت المتنفس الوحيد للأسرى، بعد أن صعد فوقها أسير ضخم فكُسرت، وربما لم تعد إلى الآن.

عودة إلى السؤال: من أين أتت محبة عميد؟ وصلتُ تقريبا الساعة العاشرة ونصف صباحاً، وبعد ساعتين ونصف، كنت أتمشى وحدي في الساحة، فأنا جديد على القسم ولا أعرف أحداً من الأسرى، كان عميد يتجه إلى حنفية ماء في طرف الساحة وعلى كتفه منشفة، كان ذلك الوقت الذي استفاق فيه من النوم، نظر إليّ نظرتين، وأكمل طريقه، وحين عاد نظر نظرة طويلة ووقف على بُعد متر مِنّي، ابتسم وابتسمت، ثم سألني:

أنت من نابلس؟

- تقريباً، أنا من قُراها

أنت درست بالنجاح؟

- آه ولسه بدرس

و شو بتدرس؟

- صحافة.

شايفك..

- بس أنا والله أول مرة بشوفك

صاحبك شعره شايب؟

- آه زياد

ثم دعاني إلى أول قهوة بيننا وخلالها، تحدثنا في تفاصيل أكثر، وحول كُرهه لي في أيام الدراسة الجامعية بسبب موقف من صديق أعرفه جيداً، وكان هذا الصديق يُزعج عميداً في تصرفات لم تكن دائما مُوجّهة له، بينما كان هو يتصيّد للصديق ويحاول إثارة مشكلة معه. فجاء كُرهه لي نتيجة هذا الصديق، الذي لا أعتبره سيئاً، لم

أكن أعلم كثيراً عمّا دارَ بينهما، لكنّي أظن أنّ صديقي لم يقترف أخطاء كبيرة في حياته تستدعي التربص به.

واعترفَ لي عميد أنه قال لزياد أكثر من مرة: على صديقك الابتعاد عن هذا الشخص، ولم يكن زياد يخبرني بشيء، ربما كان ينسى، لكنّي لم أبتعد.

نسينا سوء التفاهم في أقل من خمس دقائق، وكُره عميد غير المُبَرر، والذي لم أكن أعرفه، وأصبحنا صديقين جيدين في داخل السجن. أتذكر يوم خرجت من السجن قبله، وتبعنِي حتى الباب ليودعني، وهو يبتسم، وفي ليلتي الأخيرة مازحني بالقول: بُكرا وأنت طالع من الباب بدي ترفع إشارة النصر، فضحك رفيق آخر وقال: أيوه بدك يرجعوه عن الباب. لكني أتذكر أني احتضنته أربع مرات على الباب، مما استفزّ الشرطي الذي كان يُرافقني لحظة الخروج، حتى صرخ: زلمي يلا.

كان موعد خروجي أو ما يطلق عليه بالعبرية «شحرور» من السجن هو الخامس عشر من آب ٢٠٠٩، لكنه صادف يوم سبت، وفيه تتعطل الحياة في السجون، لا محاكم ولا تنقلات ولا خروج، لذا كان علي الانتظار حتى صباح الأحد، الصباح الذي كُنت أظنه لن يأتي أبداً، لكنه أتى، في العادة يتم إخبار من سيخرج خلال الليل، ونادرا ما يتم تأجيل ذلك حتى الصباح، وكنت من النادر، جاء العدد عند السادسة والنصف صباحا ولم يخبرني أحد بأنني سأخرج هذا اليوم، وقفت قريبا من جدار القسم أنظر للخارج، للسماء والشجر البعيد وأردد في نفسي متى سأخرج من هنا وأرى ما هناك، شعرت بغصّة كبيرة وعدت لبرشي واختفيت تحت الغطاء، في حدود التاسعة والنصف قفز فوق فراشي شاب من بلعا، قائلا: يلا قوم انصرف، وهو يضحك.. دون أن أصدقه أنهم

فعلا نادوا على اسمي لأستعد للخروج، قلت للشاب: بدون مزح، هاي الشغلات فش فيها مزح، فضربني ممازحاً، بلاش خليك نايم، بَرَوِح عنك.. وزعت أغراضي على من يحتاجها والأصدقاء، وغادرت من الباب ذاته.

خلال أيام السجن كتبت قصائد بدائية لفتاة العلوم، تسكن في قرية تبعد عني ٣٠ كم إلى الغرب، حين دخلت الجامعة في عام ٢٠٠٥، وفي الأسبوع الثالث، حيث كان الزمن منتصف أيلول، مرّت بقربي، وما زالت إلى اليوم، بعد ١٢ سنة تمر قربي، فأنا من الذين تأخذهم الأشياء إلى ما بعد. تعمل ذاكرتي على التقاط ما يبهرها، دون أن تستعين بكاميرا أو قلم أو جلسات الأصدقاء الذين يُذكرونني دوماً فيما كان، فتحتفظ بتفاصيل ينساها فيما بعد الطرف الآخر، إنها تعمل وحيدة منذ خُلقت.

استنتجت مبكراً أن الحب هو ألا يتضّح لك شيء.

لم أعرف من قبل شعوراً يُشبهه، فقد التقيتُ صدفة في شارع النزهة بامرأة العلوم وأخبرتني أنها تعيش في رام الله منذ العام ٢٠١١. أحتفظ بأحاسيس هائلة حين أتذكر ضحكتها، لم أرها منذ سنوات، قالت لي: لم أرك منذ تسع سنوات، منذ امتحان الإنجليزي الذي جمعنا في سنة ثالثة في مبنى الآداب، لم يخطر ببالي طيلة هذه المدة أنني سأصادف كتاباً باسمك. لكنني ما زلت أذكر حين التقيتك للمرة الأولى قبل أحد عشر عاماً وحدثتك شيئاً، لأتفاجأ بعد هذه السنوات أنك كتبته. سَرّني ذلك، مع أنك لم تُشر إليّ بوضوح، ولن يفهم غيري ذلك، ذكرت لي صديقة حين كنا نتحدث في شيء يخص الحنين اسمك واسم كتابك، هي لا تعرفك، ولا تعرف أننا التقينا قبل ١١ عاما، منذ سألتك في أول مرة رأيتك فيها عن سبب تعلقك بكاظم الساهر، ووجود أغانيه القديمة في دفاترك الجامعية،

أنت الآن تجلس معي،بكتاب أقرؤه، أنت ذاتك الذي التقيته في نهايات أيلول ٢٠٠٥.

قلت: حين يصل كتابكَ لليد التي تبحث عنها، تشعر حقاً أنك امتلكت شيئاً، هذا لا يعني أن الأيادي الأخرى وكل من وصلها ليس مهماً ومفرحاً، بل إنّ الماضي الذي أرهقتَ نفسك في إعادة صياغته وجد مَن كان يعنيه تماماً، وجد الشخص الذي كان لا بُد أن يكون أوائل الذين يُمسكون الصفحات، يُقلب الكتاب ويبتسم بخفة، دون أن يُوجه لك حديثاً مباشراً، ابتسامة نصرٍ على مرحلة تخصكما.

حين تصل الكتابات لوجوه تعرف تفاصيلها حين كانت تفرح، أو تغضب، وتعرف متى تُصاب تلك الأجساد بالبرد، أو بالدفء. حين كان هذا الاسم يمشي معك في بداية مشواركما الجامعي، حين يمل منك يقول: لو أنك بقيت على خطتك بالذهاب الى جامعة القدس، فترد: وأنت لو بقيت على قناعاتك بالذهاب إلى الجامعة الأميركية، لكنك تخليت عن خطتك، وهو عن قناعاته، وتوجهتما إلى النجاح الوطنية.

خلال صدفة أخرى في نزلة البريد وسط رام الله، قالت لي زميلة جامعية: ما زلت كما أنت، بسيط، غير اجتماعي، ولا تتحدث إلا حين يسألك الآخر. قلت لها: أنا ما قاله ميلر في سندرار: «كان الأكثر اجتماعية بين البشر ومنعزلا في الوقت نفسه».

على استراحة أريحا، حملت صبية حقيبتي ومشت بها مترين، قبل أن تتأملها وتدرك أنها أخطأت، وتعيدها إلى مكانها، لتجدني بانتظارها، اعتذرت الاعتذار الاعتيادي الذي يحدث لنا جميعا حين نصطدم بغرباء، ونبتسم لهم ابتسامتنا الدافئة.

أحب أولئك الذين يمرون عنا سريعا، وربما لمرة واحدة في العمر، كما يحدث في المطارات، والأسواق، ولا ينتبهوا أن ملامحهم استوقفتنا. وفي الغالب هم يشبهون أناس نعرفه، غابوا جميعا، لم ألتقِ بأحدهم ثانية، لكنني ما زلت أعرفهم.

رغم أن الاعتذار والتلاقي بين وجهي ووجهها لم يدم أكثر من خمس ثوانٍ إلا أنني لمحت كِفيها، فمها الصغير، والشفتان المائلتان إلى اليسار لحظة الابتسام، الأصابع الطويلة والنحيفة، العينان باللون العسلي الفاتح، العروق الشفافة على الرقبة، متوسط الطول المتناسق مع الفخذين، العمر القريب من الثالثة والعشرين. لحقت بها دون أن أُبين ذلك، فقط مشيت ببطء خلف خطواتها، وقبل الخروج من الباب الأخير ناداها رجل يشبهها ويكبرها بحدود العشرين عاما، كان يمشي معها: ميادة «اشتقتِ لطولكرم؟»

يقال أنه كان لطولكرم قديما رائحة في الصباح الباكر، هي رائحة بيارات البرتقال ونِوّار اللوز المتفتح، قبل أن يهجم على تلك المساحات الزراعية غول البناء ويَقدرُ الاسمنت على الشجر. بالنسبة لي ظلت طولكرم مكاناً محايداً في الصداقة والحب، لكن كل جميلة أصادفها في مكان ما، أشّك أنها كَرمِية، حتى لو علمت بعد ذلك أنها من محافظة أخرى، يبقى الشك قائماً.

ثم أتذكر ما كتبه محمد برادة لمحمد شكري في العام ١٩٧٧: «اكتب كلما سمحت لك الظروف، حتى عندما تكون قاعداً في المقهى وتلمح سوداء جميلة».

عصفور نور شمس

على مدخل عنبتا، يُعجبني الدرج المتواضع جداً على الجهة اليمنى، ونِوّار اللوز وأشجار زينة أخرى، ننتظر أحمد الذي سيأخذنا مع عبد الفتاح إلى منزل غالب في مخيم نور شمس عند مدخل مدينة طولكرم، لا أعرف أحداً منهم، فقط تربطهم صداقة «عصافير» مع ابن عمي الذي يبحث عن عصفور فريد من نوعه في فلسطين.

هل في المخيم عصافير؟ عصافير جميله!

يقول عبد الفتاح سأدخل أمامكم بسيارتي وأنتم اتبعوني، ندخل وراءه مباشرة، في كل عشرين متراً هناك مفترق أزقة يُودِي بك إلى حارات تشعر أنها ستودي بك إلى أزقة أكثر وأضيق! لعنة الله على الزقاق والضيق. سيتوه عبد الفتاح على الأقل مرتين «والتيه في المخيم مُكلف»! إنك تدخل من شارع لتخلص منه فكيف إن تُهتَ وعدت من حيث دخلت!

اللعنة على من كان سبباً في تيهنا في شارع أو حارة أو مدينة نعرفها جيداً.

يتقدم عبد الفتاح بسيارته سريعاً، ولا سيارة أخرى مضادة في الاتجاه تلاقينا، فليس هناك مساحة لتمر سيارتان متعاكستان في الاتجاه، وما الفائدة من وجود كل هذه الطرق واللّفات إن لم تكن

واحده منها تقود إلى يافا؟ هكذا قلت لنفسي.

نتوه عن عبد الفتاح، الأمر أصبح بحاجة إلى خط هاتف مفتوح لنظل وراءه مباشرة، يقول عبد الفتاح أنظر للبيت المائل على اليسار، أنا أقف أمامه، يا عبد الفتاح كل البيوت مائلة وألف طريق هنا تقود إلى اليسار، فمن أين نستدل عليك؟ يترجل من سيارته ويقول دقيقة وبكون عندكم.

وصلنا، قادنا للمكان الذي ركن به سيارته في انتظارنا لنعود مُجدداً نمشي خلفه، وأخيراً وصلنا منزل غالب الذي يقطن في آخر المخيم، في أعلاه.

لم يُعجبنا العصفور كما قال ابن عمي يبدو أنه ليس أصلياً، -هذه مهنته-، أما أنا فأعجبني شكله وصفيره لكن خبرتي قليلة بالعصافير ولا حكم لي.

نشرب قهوتنا بسرعة فالعودة طويلة من آخر المخيم إلى الشارع الرئيسي، مع أن الساعة لم تتجاوز الواحدة والنصف ظهرا لكننا خِفنا أن لا نخرج قبل غروب الشمس، وأن يَحلَّ الظلام ونحن نحاول الخروج.

إن الأمر شبيه جدا بتعقيدات قضية اللاجئين، فالدخول بالقضية للخروج منها يلزمه تعب ووقت طويل.

يقترح عبد الفتاح أن نعود من طريق آخر أيسر، «لا طريق أيسر أو أقصر هنا، فلماذا هذا الاقتراح يا عبد الفتاح! نريد أن نعود من الطريق ذاتها، لنتوه التيه ذاته، فالتيه مرتين أمر مقلق!».

تبسمنا لحظة خروجنا من الأزقة، كالخارجين من حرب بإصاباتٍ خفيفة.

أنظر لوجوه الناس وأتساءل وحدي: يا إلهي من أتى بهم هنا؟ متى يعودون؟ من أرعبهم؟ من أوهمهم؟ من تَوَهَم!

وكان هناك نوار لوز على قليلٍ من أطراف المخيم وأطفال لا يلهون بشيء، وبماذا سيلهون؟ ألا يكفيهم من يلهو بهم منذ ستة وستين عام.

يعمل الاحتلال منذ يومه الأول، على قتل الإنسان الفلسطيني من داخله، فيقتل طفلًا، ليترك في عائلة بأكملها حسرة أبدية عليه، ويقتل شاباً، كان يحلم بوظيفة وزوجة وبيت هادئ، ويقتل رب عائلة، مُخلفًا بجريمته أرملة وأطفالا تتقاذفهم الحياة بين مر وحلو، ويخطف رصاصه أماً، تصبح ابنتها الطفلة في لحظة واحدة أُماً بديلة. يَزجُ وراء قضبانه أطفالًا لم يروا بعد من الحياة شيئا، وصاروا بداخل سجونه شباناً، ورجالاً تزوج أولادهم الذين كبروا، وأنجبوا أطفالاً، مُحوّلا الأسير إلى جد.

في الأسر قصص لا تنتهي من انتظار أم لولدها، وزوجة لزوجها، وخطيبة تَأجل موعد زفافها، وبين من انتظروا أحبة عاد بعضهم، وبعضهم استشهد، وآخرون أخذتهم السجون والغربة والمنافي، يستمر الاحتلال بمحاربة أحلام الفلسطيني، الذي ما زال يرد عليه، ويصحو صباحاً، يقول بداخله: حيَّ على الحياة.

في طريق الخروج من نابلس وقبل الوصول لحاجز حوارة العسكري، على جانب الطريق قبر لشهيد مجهول الهوية، منذ عام ٢٠٠٣ وأنا أفكر في من يكون؟

ثلاثة عشر عاما مرت، وربما ستمر مئة عام أخرى دون أن أدري لأي اسم هذه العظام المطحونة...

فكرتُ كثيراً في أن أخترع له اسما، ثم تذكرت أن أسماء الشهداء أجمل من ألقابنا، من تكون أيها الجسد، هل أنت عراقي؟ أردني؟ فلسطيني؟ في أي جهة من رأسك استقرت الرصاصة الأخيرة؟ هل لكَ وصية؟

هل لك أم؟ هل تزورك كل صباح عيد لتقرأ لروحك الفاتحة؟ هل لك أشقاء، أصدقاء، أعداء، بيت، أطفال، حبيبة؟ هل لك اسم...؟

قبل الحاجز بثلاثين مترا يمد الجندي يده على شكل إشارة قف، بعد ربع ساعة يحرك اصبع السبابة، في إشارة لنتقدم إليه، قبل وصوله بمترين، يُعيد في وجوهنا إشارة التوقف، يقترب من زجاج السيارة ينظر بداخلها لثوانٍ، نظرات لا تعجبنا ولا تعجبه، ثم يُحوِل يده إلى دائرة تلتف في الهواء، وهي إشارة بأن نمشي، إنه حتى لم يتحدث إلينا بكلمة واحدة.

قبل سنوات أيضاً كان يشير بإصبعه نحونا، ليتناول واحداً منا، ليضعه في جورة حاجز حوارة، وحين يسمح مزاجه للتحدث معه أو الإفراج عنه، كان ذلك يتم بأصابعه، «أنت»، هكذا تقول يده: أنت، تعال هون، أنت امشي من هون، انت وقف هون!

وكأنك أنت المتهم بسرقة أرضه وذكريات أجداده، أحلامه وسمائه ومائه وحريته!

بيننا أغنية

أنتظرك على دوار الساعة، الذي تحول لميدان ياسر عرفات، والذي كان قبل عشرات السنوات «ميدان المغتربين»، وكتب فيه فاروق وادي «لا تعرف منذ متى تحول اسمه إلى ميدان الساعة، إمعانا في تغريبه!».

بعد عامين من علاقتنا، التي لم تخف لتصبح عادية، ولم تكبر لتصبح قوية، ولم تغلِ لتصبح حُب، المساء قريب من المُمطر، أتسلّى بالمشي قبل أن تصير الرابعة مساءً، أتحسس المكان، الجميل فيه عربات الذرة والقهوة على الأرصفة، ذوق المذياع حين تمر بمحاذاته في اختيار أغانيه، مما يجعلك تبتسم وتُبطئ خطوتين، وربما تبتسم لأول امرأة تطل من الجهة المقابلة أو الأمام، مهما كان سنها أو شكلها؛ حتى أنك تشعر أنها أصبحت حبيبتك.

كثيراً ما أسمع أغاني التسعينات ممزوجة مع بخار القهوة، أو الذرة، وسرعة صاحبها في تجهيزها، الصوت المنبعث من العربة التي تصطف أمام عمارة الساعة أغنية «جني» لراغب علامة،

ثم تبعتها أغنية «بعترفلك»، وهي أشهى ما غنى وائل كفوري. كُنت وحدي. ومع ذلك عشت شعوراً مذهلا، وراحت ذاكرتي تعود لأيام الجامعة، كانت أمنية أن ألتقي بشخص يقول لي من تلقاء نفسه، وبدهشة: أعشق كلوديا الشمالي! فقط علاء فعلها بعد أن أسمعته عشرة أغانٍ، وبعد أسبوع أقنعت نفسي أني لم أُشر إليه بها، كنا نسير في الساحة الرئيسة لجامعة النجاح الوطنية، نشرب القهوة ونتحدث، قلت له: علاء كانت ليلة مبارح حلوة؛ مطر وبرق ورعد وأنا بدرس على مادة فلم سينمائي، وبسمع ميادة الحناوي ووردة الجزائرية وأصالة نصري. قال: وأنا درست محاسبة ٢ على صوت المطر وصوت كلوديا الشمالي. الأغنية ليست فقط بكلماتها وألحانها ومُغنيها وصبيتها الحلوة، بل بطول عمرها فينا، في منتصف التسعينيات كان ماهر حلبي، وكانت رائعته «فرط الرمان» مرت السنوات، وانتشر الصحن اللاقط ، وانتشرت معه محطات الأغاني بكثافة، وأُصدِرت عشرات الالاف من الأغنيات. تغير الزمان بشكل رهيب، وظلت فرط الرمان عنيدة كإصدارات أدبية كثيرة يقول بعضهم فيها: ليس أعظم كتاب، ولا كاتبه أجمل كاتب، لكنه كتابي العنيد.

تصلني منك رسالة نصية، تطلبين أن آتيكِ إلى مكان عملك، مع شيء من المزاح، من أنك لا تُجيدين صنع الشاي أو القهوة، أمشي إلى مكتبك في شارع يافا -مقابل البردوني سابقا-، مبنى أنيق ومكاتب فخمة، الطابق الخامس، إلى اليسار، أدق الباب، تفتحين، ما أجمل ملامحك في اللحظات الأولى كلما التقينا..

كُنا وحدنا، وماذا يفعل مثلي مع صبية تُشبه رذاذ أباريق الورد! وحدنا في مدينة تحمل اسم الله، في مبنى يُشعرك أن «بساغوت» ضاحية من ضواحي البيرة بعد أن تطل من نافذة الطابق الخامس، وفي قلبي الله، والوطن، واشتهاؤك.

أعددتِ شاياً خفيفاً، كما لا أحبه، وكعادتك سألتِني: ماذا كتبت مؤخراً؟ قلت إنني أشعر بيأس في الفترة الاخيرة، ولم أكتب الكثير، ولا أحب الكتابة حين لا تكون لسعة لشيء أو أحد، فالكتابة هي أن تطلق النار والضمادات معاً، تُصيب أُناسا وتداوي آخرين تعرضوا للإصابة من قبلك.

تُصيب امرأة في بغداد، وتداوي جروح شاب دمشقي، تشعل نار الكره مجددا بين صبية وشاب في الخرطوم، تدعو حبيبين سابقين في بيروت إلى فنجان قهوة، تُقلب امرأة في فراشها بالقاهرة، وتُخبر رجلاً في صنعاء أنّ كل ما حدث كان متوقعاً.

في الكتابة يُمسك بك إنسان إلى آخر العمر، ذلك الذي تكشفه كُلما كتبت، يَدُسُ كتابك تحت فراشه ويقول: لو أن الكاتب جاري، وتقول امرأة: لو أن عمري قريب من عمر الكاتب، والمسافة أقل.

الكتابة عن هزائمنا، صفعة بوجهنا، ربما ليست قوية، وليست صفعة ستمحوها الهزائم التي لا تُمحى؛ لكنها بالتأكيد تخفف رعبها والقلق منها، عضة صغيرة في أذن المنتصرين علينا، شهادة أننا لم نمت مرةً واحدة، وأن الجثة التي تركوها وراءهم تحركت قليلاً، حتى لو للوراء، وأنها رفعت رأسها قليلاً، وربما مشت خطوتين، ثم سقطت. اكتب، لئلا يُقال سقطت جثته دون ضجة. وأكتب، لأن شخصاً سيطل بعد زمن ليقول لك: شكراً.

وهي أن يرى الناس اصبعك النازف، لكنك تتمنى لو تقدر أن تكشف فيها عن يدك المقطوعة بأكملها.

عَلَمني البرد، في البداية كان الفقر، ثم كانت الكتابة.

في مقابلة اذاعية قبل أحد عشر شهراً سألتني المذيعة في حوار قصير قبل الخروج على الهواء مباشرة، حول الدافع لنكتب،

والطقوس التي نتبعها حتى نكتب رواية. فأجبتها: نحن لا نُرتب لكتابة رواية، الرواية هي التي تُرتب حياتنا، لا أتذكر أني فكرت يوما بكتابة رواية، كُنت أفضل كتابة مقالات ونصوص متفرقة وأحتفظ بالنشر في الصحف والمجلات، دون أن يدفعني موقف يومي أو حدث شخصي للتفكير بكتابة رواية، لكنه الضجيج يفعلها! التراكم هو ما يفعلها، فحين تتزاحم المواقف والأفكار وتتعمق وتتشابه وتتناقض وتقترب وتبتعد، وحين يتزاحم أناس فينا، تُصبح فكرة الرواية واقعاً لا هروب منه.

ونحن وحدنا نعرف إن كانت الفكرة نضجت أم أنها ما زالت طرية، داخلنا هو الذي يقول: حان الوقت، أو انتظر قليلا. نحن لا نكتب من أجل شخص أو مدينة أو سُمعة أو جائزة أو غيرها.. نكتب حين الروايةُ تدق الباب وتدخل، حين تجلس وتقرر أن تنام قربنا، تخرج في اليوم التالي برفقتنا، تختار معنا ملابسنا، وطعامنا، وأصدقاءنا، وأذواقنا، وأغانينا، وتشرد مثلنا من أشياء كثيرة، تظل تطاردنا إلى أن نكتبها، وحين ننشرها تصبح ابناً لنا في بيوت الآخرين.

قلت لأبي: ليس كل شيء رياضيات، حين كان شديد الغضب من علاماتي المتدنية نهاية كل عام دراسي. الحياة ليست رياضيات يا أبي، لا ذنب لي بعشق التاريخ والجغرافيا.

تخيل معي يا أبي لو أنك استطعت تحييدي عن عشق المادتين، تخيل معي هذا الكم الهائل من صور اللوز والسرو والزيتون والصنوبر والبلوط والخروب والعنب والرمان والليمون الذي تضج به ذاكرتي، لو أنك أصررت أكثر على ضرورة أن أتعلم الرياضيات، لكنت حرمتني من الكتابة يا أبي.

أكتب لأبرر خيبتي أمام أبي الذي حلم بي طيارا، أبي الذي لم

يخرج من فلسطين كان يريد مني أن أجوب العالم، ربما أراد لي أن أرى ما لم يره، العالم فلسطين يا أبي، ونظري ضعيف، ضعيف جداً، لا يقوى على أكثر من البلاد!

أشرب الشاي ببطء، رشفة منه، ونظرة إلى صدرك، أحب اختفاءه خلف كنزتك ثم تخيله، تُرى هل يُشبه خدود الأطفال الذين نقرصهم في الشوارع والحواري؟ أم أنه صلب كأيدي الجدات حين يعصرن حبات الزيتون؟ لو أنه يقفز الآن لشددته وأرخيته، وطيرته في الهواء كطفل، ثم مددت أصابعي ليرتاح.

تقطعين الطريق أمام تخيلاتي، وتسألينني وقد اتفقنا أن نسمي البندقية «السمره»، متى تزغرد سمره؟ اشتقنا! أرد: اه والله اشتقنا، لكن الحال تغير كثيراً، هل تعلمين أن الاحتلال كان يُهاجم منصات الغناء الوطني في الثمانينيات والتسعينيات! تخيلي كانت الأغنية سمره من نوع آخر! سمره تبث في القلوب والعقول ريح الثورة، أما الآن فإن الاحتلال مثلنا يجلس على الشاشات ويشاهد مثلنا منصات المناسبات الوطنية والانطلاقات الفصائلية وكل السمراوات اللواتي يخرجن ويزغردن فيهن دون أن يُحرك ساكنا!، أمس كانت تقلقه الأغنية، اليوم لا يُقلقه السلاح، كل الطلقات التي تنطلق في الهواء عبثاً، عواء وليست زخات.

لا أعرف كيف كنت أتنقل في الحديث معك، من أغنيات تلهب الثورة وتجعلها قوية، إلى أغنيات تلهب الحب، وتجعله مدويا. من «وقفوا صفوف صفوفِ»، الأغنية الوحيدة التي تبكيني، إلى «زغردي يا أم الجدايل»، التي تَرسُم فيَّ كل أمهات الشهداء وهن يودعن أولادهن، إلى «رمانة» حيث يذهب بي سميح شقير إلى شوارع بيروت والكلاشنكوف، لكن واحدة منهن لم تستطع أن تقتحمني كما فعلت «وقفوا صفوف صفوفي»، التي كتبها ابراهيم

المزين في استشهاد موسى حنفي عام ١٩٨٧ وغناها عبد المنعم عدوان، هذه الأغنية تحرك ما بعد الدمع! يقف عبد المنعم عدوان على المسرح، ويغني:

وقفوا صفوف صفوفِ، وسحجوا على الكفوفِ

إجت إمو، يا عزيزة يا مغندره، يا دمعه يا سكرة

عريسنا مبدر عَ وين، عريسنا بِغَفي العين

إمو ردي يا إمو ليش الورد ملثم ع ثمه

والحديد على كتفو ما همو ما همو

مع الندى طالع، طالع لحالو، يا بنات قزولوا خواله تَ يلفو يلمو جماله

تقدمين لي صندوقا خشبياً صغيرا، أفتحه فأجد كاسيت تجميع، على الوجه الأول ألصقت ورقة كتب عليها بخط يدك: أنا وليلى (كاظم)، يا مجنون (أصالة)، لما بشوفك (باسكال)، ماني (ديانا)، كل البنات بتحبك (حسام)، السود عيونه (مصطفى).. وعلى الوجه الثاني: زخ المطر (جوانا)، بتنطرني على غلطة (كلوديا)، وين بتسهر (ندى)، انت وبس حبيبي (محمد)، عشرين عام (سعدون)، بحبك انت (داليا) سلامات سلامات (ناديا).

ويدي على يدك، نتحدث عن الوطن، أنتِ مأخوذة بالجليل وحيفا ويافا وعكا، والقدس، القدس التي تقلب حياتك حين تتمكنين من زيارتها لساعات قليلة، وتعودين إليَّ باكية! كنت أعتقد أن العشاق يبكون فقط عند فراق أو برود الحبيب، أو حين يمسه سوء، إلى أن جئتِ، صارت المدن حبيبة، نبكيها.

قلتِ ويدك تضغط بقوة على يدي: للقدس رهبة لا يجدها المرء في أي مكان آخر، رهبة المقدسات، الشوارع، الغرباء، الباعة، الأطفال، رهبة لكل شيء وكأنك تود لو أنها بمقاس كفيك، لتحملها كلها مرة واحدة وتضمها إلى صدرك.

ثم تذكرت جبرا ابراهيم جبرا في رواية «السفينة»: «أتعرف القدس؟ لعلك كنت صغيراً عندما التهم الوحش اليهودي أجمل نصف في أجمل مدن الدنيا. القدس أجمل مدينة في الدنيا على الإطلاق. قيل أنها بنيت على سبعة تلال.»

إنها القدس.. مدينة أكبر حب عشته، مدينة أحنُّ امرأة عليّ، المكان الذي خُلقت فيه دلال.

لم تغاري من الأشياء التي قلتها عنها، بل غِرتِ من الأشياء التي لم أقلها، هل حقاً كان لدي الكثير لأقوله فأخفيته؟ ربما، لأنني ما التقيت أحدا من القدس، إلا وتمنيت أن أقول له: سَلِم عليها.

تقولين لي: قبل أن تُغادر أكتب لي ولو سطراً، فأكتب على باطن كفك: أحبك حتى الشهيد الأخير.

تقولين: إذاً لن ينتهي حبنا أبداً.

أضمك، تقبلين، تفلتين، أضمك ثانية بشدة، بخطيئة صغيرة وشهية، فأنا لستُ ثورياً كما تعتقدين، لي أخطائي وشتائمي الشنيعة، ويدي الطويلة، لكني حين أحب، أحب بصدق، صدق يشبه سهر الأمهات، يشبه تعب الآباء، فأكون واضحاً جداً.

ينتهي لقاؤنا، أمشي في شارع المعرض، المتفرع من شارع ركب، الماشي وحده إلى ميدان الساعة، هذا الشارع الفرعي الصغير في قلب رام الله، تشعر به وكأنك تود إيقاف حركة الناس والمركبات

وصوت الريح، لتستمع إلى صوت قدميك وهي تطؤه خفيفة مدهشة، أمشي وحدي لأني بلا حب، لا تُصدق أن الذين يمشون وحدهم ليسوا وحيدين، وإن أنكروا ذلك، تأتي على البال دلال، هذه المرأة الوحيدة التي تأتي لوحدها، لم أطلب منها يوماً المجيء، لأن الحب لا يُطلب، فهو يعرفنا جيداً، ويأتي متى يشاء.

حين تأتي من القدس، وفي اللحظة الأولى لرؤيتها تطل أحمل عنها يديها. اليدان الآتيتان من القدس خرجتا منذ دقائق فقط من معبر قلنديا المُذِل. أتنفس أصابعها فيتشكل باب العامود وقبة الصخرة وحجارة ضخمة وعتيقة وأحياء كثيرة لم أزرها يوماً، كنائس ومآذن وعجائز ومقاهٍ وأطفال يلعبون في الأزقة. كل هذا أراه، لكن معبر قلنديا بجنوده وأبراجه وجيباته العسكرية وجدار فصله لا يظهر، تظهر قُدسي العربية، والمرأة التي كتبت لي يوماً: رُدني إليك.

الغياب و ٥١ يوما من الحرب

كُنت أحدثك كل شيء، الأشياء التي حدثت، والتي تحدث، ما أحلم بحدوثه، وما لن يحدث أبداً.. قلت لكِ يوماً: أنتِ تُشبهين قطعة الأرض التي كانت لجدي قبل أن تستولي عليها المستوطنة القريبة بالقوة، لكنني لا أريد لنا نهاية تشبهها، أريد أن نبقى في البدايات، كأرض جدي وهي تطعمه القمح والسمسم والفقوس والحمص، وهي تمده بالنّفَس النقي والهواء الأول.

قاطعتني: سأعترف لك بشيء قد لا تقول بعده شيئاً، كنت أشعر معك بالصداقة والفضول والأمان والرغبة، بكل شيء إلا الحب! لم يكن الأمر بيدي، فقصة حبي القديمة عادت، عاد الشاب الأسمر الطويل الذي أحببته أول مرة، عمر حبنا تسع سنوات.

ساد صمت رهيب بيننا..

شَردتُ في أول حب حصل لي أيضاً، وكانت صبية سمراء طويلة، حدث ذلك قبل سبع سنوات، لكن الفرق بيننا أنها لم تعد، كما فعل أسمرك الطويل!

كنتِ تعتذرين بتطليعاتك، وتحاولين الكلام، تودين لو يسقط بيننا فنجان القهوة الذي وضعه النادل أمامي، أو كوب الليمون أمامك، لينكسر هذا الصمت الكبير، الواقع بيننا.

لم أخرج من فكرة أنني أحبك، وأنك موجودة في حياتي، وتسمعينني، أنتِ معي، هذا كل ما أعرفه وعشته، رغم أنني لاحظت منذ البدء أنّ شيئاً غير طبيعي يحدث بيننا، لكنني كُنت أطرد ذلك الإحساس اللعين، وأصرخ به وأنا وحدي خاصة ليلاً: هذا كل ما أملكه، انصرف عني! لكن، كم كان صادقاً.

في أيلول، الشهر المُقيت على الأقل بالنسبة لي ولمن أعرفهم جيدا، بدأت رسائلك النصية تقل بشكلٍ واضح، وبدا شَبحُ الرحيل يخيم على قصتنا، إنها نهاية أعرفها جيداً، سبق وقابلتها في حزيران ٢٠١٠، حين كُنتُ صباح وعصر ومساء سناء، قبل أن تصبح قصتنا في آخر أسابيعها: روح صلي الجمعة.

من عشرات الرسائل النصية اليومية، إلى رسالة أو اثنتين في الأسبوع، من حوارات ملأى بالحديث عن المستقبل والحب والأمان، إلى محادثات اطمئنان جافة تحدث بين كل زميلين في وظيفة حكومية.

الذين نجري وراءهم لن يقعوا في حبنا، الحب الجيد هو الذي نمشي إليه بهدوء؛ حتى أن هذا يُفيد لحظة التوقف والانسحاب، فالفرق كبير بين أن تصطدم وأنت تجري، وبين أن تصطدم وأنت تمشي على مهل.

كما في الضوء أيضاً، جرب أن تُشعل غرفتك مرة واحدة بإضاءة كثيفة، وجرب أن تضيئها قليلاً، الأولى تؤذي بصرك، والثانية تُريحه.

فالحب سلم، درجة درجة أيها القلب!

هُناكَ خَسَارات تقهرُكَ، تُصْمتُك، تُعيدُك وحيداً لكنّكَ انتصرتَ فيها، انتصَرتَ عليك، على كلِ ما فيك حينَ كنتَ تعيشُ على شعورٍ داخِلِي وحيد: ليس بإمكانِي الحياة دونَه. تَقَبُلُكَ لِلخسارة، انتصار! الخسارة التي لا تُغيِّرك لتُصبحَ شريراً. هذه الخسارات التي تأتي وتذهب وتتبدّل مَقاساتُها، فتُصبح جزءاً منْ الحياة، لا يجوزُ لك أنْ تصرُخ دوماً: خَسِرْت. جرّبْ مرّةً أنْ تقول رَبِحت لأنّي خَسِرتْ! عِشْ التجرُبة منْ زاوية مُعاكِسة تماماً، ارسم خساراتك، اكتبها، غنِ لها، اصنع منها شيئاً غير البكاء.

قررت أن أستمر بالكتابة إليك، إننا نكتب لمن يفهمنا، وإن رحل!

في غيابك، تغير شكل الوطن، وصار بيننا شهداء جدد.

في الحروب تحتاج الناس لبعضها، لكننا اختلفنا قبل الحرب بأسابيع، فعشنا أجواءها غريبين، لا أدري ماذا كنتِ تصنعين فيها، واثق من أنك انتظرتني لأكتب لكِ، ولم أكتب.

قلت: لربما تعيدنا الحرب. بدأت الحرب، سارت مسافة ٥١ يوما، ولم نعد.

في الحرب كتبتُ لكِ ما التقطتهُ عيني وضميري وواجبي. حين تنتهي الحرب الكبيرة وتعود الناس إلى حروبها الصغيرة، يعود كلٌ مِنّا إلى حربه الخاصة، إلى صراعاته وصداعه..

حين تنتهي الحرب تصبح الحياة والمزاج والمواقف شخصية جداً.

جرح غزة العميق تَفَهَ جراحاتنا العادية، وحين نام أفاقت مجدداً،

لطالما تساءلت بماذا يفكر الانسان وقت الخوف؟ حين يسمع صوت الطائرة القريبة؟ حين تسقط القذيفة؟ أو حين يرى الموت بأمَّ عينيه؟ أهله، أحبابه، بيته، ديونه، عمله، أحلامه...

وحده التساؤل أخذني إلى شيء آخر، إلى ذكرياته وحنينه. ثمة صور عائلية وصور زوجية، صور طفولة صارت رماداً، محابس خطوبة وورد بين ثنايا الكتب المهداة والشموع، قطط ودببة قطنية، أساور فضة، عقود من الخرز، أقلام حبر عادية وفاخرة...

كل الأشياء الرومانسية المتعاقبة ذكرى بعد ذكرى مزقتها القذيفة الطارئة.

مشاهد من الحرب

مشهد

القذائف تستهدف أطفال غزة، لا تُريد لهم أن يكبروا، لا تريد لهم أن يصبحوا مقاتلين، ولا حتى أطفالاً يلعبون بالرمل والبحر.
لا تريد أن يصبح لهم ذاكرة، ذاكرة غضب، فتقتلهم فراشات، وأحلاماً، تقتلهم صغاراً، تقتلهم صفحاتٍ بيضاء.
ولا تدري أنها تُحوّل ذاكرة كل شبرٍ في غزة إلى لونين فقط، لونٍ أحمر سيطلع بوجهها، ولونٍ أسود سيطلع بوجه العالم.

مشهد

نور حمد، الطفل الذي بثت صورته قناة الجزيرة وكان نائما على سرير مستشفى الشفاء، وابن عمه كِنان الذي كان في حالة صحوٍ، صحو من إصابة جسده لا روحه!
نور الذي فقد والديه. -يُتمٌ مُبكر-؛ وكنان الذي فقد أمه -يُتمٌ لا يُطاق-
من سيقنعهما غداً بحل الدولتين والسلام؟ وأن إسرائيل جارة؟ إن وافقت أي قيادة فلسطينية على السلام مع إسرائيل علينا أن نُبقي المعركة معركة ثأر شخصي.
من قلع عين أبي أقلع عينه وعين أبيه، من جرح ضفائر أمي أجرح نصف أمه.

مشهد

على شاشة فلسطين اليوم: شاب صغير يُقَبِل والده الشهيد على سرير في مشفى الشفاء ويبكي، الطبيب يحاول ابعاد الشاب ويقوم بتغطية الجثمان، الشاب يبكي ويرفع الغطاء، الطبيب يبعد الشاب مجدداً ويغطي الجثمان.
اتركه أيها الطبيب إنه والده، فليقبله وليلمس وجهه الموشح بالدم والغبار وليعانقه.
اتركه أيها الطبيب إنه والده، والده، والده الذي صار الآن شهيداً.

مشهد

خبأتُ الطفل خلف ظهري، وقلتُ للطائرة: اقصفي الآن، اضربي الآن.
لم ترنا بعينها الوقحة، لم أعد أراها، سقط ظهري، سقط الطفل، ربما سقط الصاروخ أسفل كتفي.
أعتذر يا ابني مُجدداً على أمنيات كثيرة لم تحدث لك، آخرها: سآخذك غداً للبحر بتمام الواحدة ظُهراً. إن استيقظت اذهب وحدك، أما أنا فلا أظنُ بعد هذا الكم المخيف من الغبار أني سأنجو.
أنتَ حاول، حاول... ألا تَمُت الآن.

مشهد

قبل الحرب بأعوام كثيرة، دعوت ربي: لم نخرج فسحةً واحده يا الله، وبقيت أدعو، أدعو، أدعو...
ليلاً.. أخذنا شهداء.

مشهد

لطالما كررتُ لها: نريدُ بيتاً أكبر، نُريد فضاءً شاسعاً، البيت يخنقنا يا أمي، كل النوافذ صغيرة...
اليوم.. قصفوا البيت!
دخل كل هواء العالم إلى قلبي، وصارت السماء مُلكي.

مشهد

كان الطفل يجلس على ركبة جده، يمتطي ظهره، يسرق العقال عن رأسه، يلسع عباءته من الخلف، يشدُ عصاه، يُغضبه، كان الطفل والجد يلعبان، استشهد الطفل مرةً واحدة، حرموا الجد من اللعب.

مشهد

اقصف كل المدارس، حطّم مقاعد الدراسة، وانثر دمنا على المصاطب، لن تقتل الفقرة الصباحية، لن تلوي ذراع سماعة الساحة.
ستظل تردد «فدائي.. فدائي»

مشهد

الأرجوحة تأخذ الطفل للوراء، تدفعه للأعلى، وتكررها، يبتسم الطفل، يخاف قليلاً، الطفل يلهو، ترفعه للأعلى فيصيب نظره السماء.
تسقط القذيفة، فيذهب الطفل صوب نظرته الأخيرة
إلى السماء.

مشهد

لو صِرتُ أماً لخمس دقائق، لوقفت فوق رأس طفلي الذي صار شهيداً في خمس ثوان، وصرخت بوجه الطبيب: انزع لي يده، أريد شيئاً منه، ضع لعبته الصغيرة بدلاً منها، لن أخبر أحداً بغشك!
أعطني إياه لعشر دقائق لأرضعه آخر مرة.
دعهُ ينطق اسمي، إنه يعرفه جيداً، ويعرفني، إنه ابني! ألا تفهم معنى ابني.
ثم إني اشتريت له ملابس العيد، لِمَ تُصر أنت على الأبيض الكامل؟ اشتريت له قميصاً بُنياً، وبنطالاً أزرق على مقاسه تماماً، هذا الأبيض أكبر منه، أوسع منه، لم يشتهه يوماً، يخيفني عليه.

مشهد

يظهر رجل في بدايات الأربعينيات يحمل طفلاً في حدود السادسة من عمره، يُقبله ويبكيه بعد أن لفّ جسده الصغير بعلم فلسطين، آثار القذيفة ظاهرة على جبهته.

لو كُنت راوياً جيداً؛ لاخترتُ أقسى صورة في الحرب، على غلافٍ شديد البياض، ودون حاجة لاسمي، أو لتاريخ الصورة، وأسماء من فيها وأعمارهم. فقط ورقتين خفيفتين؛ لتنثر الريح الكتاب لكل الأرض.

ولا حاجة لي أن أتابع ما سيقوله العالم، أو كيف سأبدو في وجه الناقد الذي يتربص بي منذ زمنٍ بعيد.

ولن أنسقه، سأضع الصورة بكل وضوحها الأليم.

ربما تكون مائلة قليلاً، إلى جهة قلب القارئ أو ضميره، فاعذروني على هذا الخطأ الفني منذ الآن.

كتابي فقط: صورة. إن لم يفهمها العالم لا حاجة لأن أكتب سطراً واحداً بعدها.

ولاخترتك أنت، أيها الأب الموشح بالفقر والغبار تحمل طفلك إلى قبره الهادئ، وتقبله قبلتك الأخيرة.

مشهد

وكأنّ القذيفة تريد أن تقول لنا: امشوا نفراً نفراً وطفلاً طفلاً، وصلوا واحداً واحداً، فلن نقتلكم بعد الآن فُرادى، فالقذيفة التي تُصيب شخصاً وحده ليست منا.

مشهد

آن للأطفال الذاهبين إلى الله أن يصعدوا واحداً واحداً.
نحبهم شهداء، ونتمنى لهم، لكن ألا يذهبوا جميعاً دفعةً واحده.
وهكذا بلا صراخ! ماذا نفعل بالبيت الكبير؟ وهذا الهدوء المُفزع...

مشهد

في معركة الرجال، تبحث إسرائيل عن الأطفال، تقتلهم، تنتقم منهم، تستقوي على أجسادهم الرشيقة والناعمة، تطرب لأشلائهم، ويقول الجند لبعضهم: مَحَقناهم.. انتصرنا.
ولا تدري بعد أنّا حتى لو انتهينا، فإن قبورنا ستهتز وتزحف بحجارتها صوب وجوههم تلعنها.

مشهد

توقفت منذ ليلة أمس عن مشاهدة الحرب، لم يعد بوسعي تحمل خروج الأطفال من بيوتهم وألعابهم وأحضان أمهاتهم إلى المقابر.
لم يعد بوسعي تقبل أن الأب لم يعد موجوداً لدفع فاتورة الماء أو معاينة من سيأتي لطلب يد ابنته، أو أنّ الأم لن تصحو مبكراً كعادتها لتحضير حقائب الصغار ووجبات الزعتر واللبنة قبل السابعة صباحاً.
ولا هدوء الأزقة بعد ضجيجها لسنوات طويلة بفعل سهرات العاطلين عن العمل.
وليس لي بندقية!
سأجمع كل هذا الحزن في قلبي، أُمارس طقوسه وحدي، كالكفَّ عن شرب القهوة قبل منتصف الليل بقليل والنوم مبكراً، أو البكاء بعد منتصف الليل بقليل بعد إحساسٍ مخيف يتسرب إليّ بأن هناك شهداء كُثر هذه الليلة.
لن أتابع الحرب، ولن أحصي خسارة أو ربح أحد، ولن أحمل أحداً المسؤولية ولن أصفق لأحد، لن أشتم أحداً، أكره سيارات الإسعاف، وتحول الناس في دقائق إلى سجلات.
أخطف ما تملكني وأصعد به الى جبلٍ قريب، إلى الطبيعة التي لم يُدنسها شيء بعد، وهناك سيكفيني الشاي مع الميرمية لأشعر أني أحب البلاد أكثر.

مشهد

لم يغضب أحد إلى الآن يا غزة، من لا يغضب على شهيدٍ واحد لن يغضب على ألف شهيد.

مشهد

أيتها الحرب رُدّي ما كان وعليكِ السلام، طفلاً طفلا، صديقاً صديقا، امرأةً امرأة، شجرةً شجرة...
أيتها الحرب: عودي ديارك.

مشهد

أين النحلة التي كانت تستطيب مذاق ورد النوافذ؟ أين النوافذ؟ أين من كانوا يشقون عن صدرها الستائر؟ أين البيت أيتها الحرب؟

مشهد

أستشهد أخي
من سيأتيني بأخٍ يحملُ نظرة عيونه، وبؤسه.
استشهدت العائلة
يا إلهي من سيمشي معي لبيت الصبية
استشهدت الحارة
من سيقنعني الآن أن أنسى ثلاثين عاماً؟ من يعيدني صغيراً؟
ويخلق لي أصدقاء طفولة، أو أعداء طفولة.
استشهد أبي
وظلَ يا أمي ظِلُهُ يحوم حول البيت، يحميه، ظلهُ الذي لا يراه
زورانا ولا أعداؤنا، نحن فقط.
نحن الذين قلنا له: لا تدع شيئاً يميتك يا أبي حتى لو كان الموت
ذاته.
ألا تشعرين يا أمي بطول يديه؟ وكيف تمتد فوق سطحنا، وخلف
البيت، وكيف يتشكل كاملاً بهياً جاداً على بابنا.
وكيف سيرقص في زفاف أخي الصيف المقبل، لقد اشترى ملابس
وعطرا ودعا أصدقاءه إلى فرحنا..
بالأمس فقط، طلب أن نُحضر القهوة من المطحنة التي يعشقها.
واشتريت له ما يكفيه لعمرين، ليت القهوة تستجدي معنا عودته.
غداً يُطل يا أمي، لا تسأليني كيف؟ ولا من أين؟ غداً يُطل كما يطل
في وجوهنا الجبل الشرقي كل صباح... غداً يأتي، غداً يعود.
ويتأخر غداً.
ومات بالخطأ قط جارتنا سميحه، المرقط بالأبيض والأسود،
رآهُ عماد -الذي أستشهد ايضا شقيقه، وأسرته، وحارته- فنسيهم
وذكرني بأن القط أيضاً أصابته شظية.

مشهد

مراسلنا في السماء: الشهداء جميلون وبحالة جيدة، اطمئنوا .
الأطفال يلهون بشكلٍ رائع، وبات لديهم أصدقاء.
الأطفال الأربعة الذين كانوا يلهون على البحر قبل القذيفة، وجدوا هنا رملاً ألذ.
الكل هنا بخير، حتى الجدة التي كانت تحتمي ببيت درجها، الآن تصعد كل الأدراج هنا، ولا تخاف شيئاً، إنها تبتسم طيلة الوقت.
والعائلات، كل العائلات اجتمعت من جديد، ربما اعتقدتم أنها تفرقت، لكن هل من شيء يُفرّق بعد أن يكون الدم هو الجامع؟

مشهد

لا داعيَ أيتها المشافي والمراكز الطبية قليلة الحيلة لثلاجات موتى أخرى، كل الأرض تصلح ليستريحوا أخيراً على أكتافهم.
لا يَهُمُ الكفن، غطوه بورق الزيتون.

مشهد

صار بإمكان غزة أن تُبدل كُل أسماء شوارع المدن العربية، لأسماء شهداء.
وربما تفيضُ قليلاً، تفيض بأسماء شهدائها لشوارع أخرى لم تُشق بعد!

مشهد

في ثلاجة الموتى جثة الشهيد لا تبرد أبداً، مُد يدك إن لم تصدقني -فالشعراء يكذبون- مُد يدك لترَ كم تغلي. في غزة لا تُسمها ثلاجة الموتى، سَمِها ثلاجة الشهداء، ثلاجة الكرامة.

مشهد

كل مدن العالم تلفظها من فمك للخارج، مبعثراً أحرفها في الهواء..
إلا غزة
تلفظها للداخل، تهبط لقلبك شهداء، وتتناثر بكَ كرامة.

مشهد

لدي حساسية مفرطة من هدم البيوت، تقلقني أكثر من أعداد الشهداء.
فالبيوت أيضاً أرواح. ودوماً أكره الذين يبيعون بيوتهم أو ينتقلون لبيوتٍ جديدة أكثر رفاهية.
قد أكره كل المحيطين بي لكني أبداً لن أكره بيتي - مهما ضاق- وقد لا يكون النوم فيه مريحاً، أو حتى الصحو! وربما ليس جميلاً إلا في عيني. لكنها رائحة الأشياء، أنفاسي التي نثرتها هنا وتكاثرت معها وازداد فيها طول
بكائي على الحائط الغربي من الغرفة - كلما اشتد وجعٌ ما- البيوت الجديدة لا شهوة للبكاء فيها.
وأنتِ أيتها الطائرة: دعي بيتي لي. فأنا لم أمت بعد، ما زلتُ أحلم بين شقوقه.

مشهد

لو كنتُ في غزة، وأبي ميت منذ زمن، واتصل بنا الجيش لإخلاء البيت خلال ١٠ دقائق، أو أطلق صاروخاً صغيراً تحذيرياً. لن أُخرِجَ منه إلا صورة أبي... بعشرات السنوات التي شقي وتعب فيها لبنائه، سنوات كده وعرقه ليراه منتصباً، سنوات حلمه وآماله... سأتركهم يدمرون ويحرقون كل شيء، إلا صورة أبي. سنبنيه ثانيةً من ظلال الصورة.

مشهد

الأب ضروري في الحرب، ليس بجسده، جسده لن يمنع رصاصة من أن تخترق النافذة فتعلقُ بكتف شقيقي، أو قذيفة لا تدق الباب فتجمع العائلة التي لا تجتمع إلا نادراً ولدقائق، تجمعهم أشلاء فوق بعضها حتى القيامة.

الأب ضروري ليُصبح صوت الرصاص أقل رعباً، إنه لا يُخيف كما لو كنا وحدنا، وصوت القذيفة الآتية أقل فتكاً، فنشعر أنها لن تقوى على السقوط بيننا، لن تُصيب أيّاً منا بسوء، فأبي هنا يشرب قهوته الباردة، ومثلنا يراقب الحرب.

وضروري لأن يقول لي: لا تخرج الآن من البيت؛ لأني لا أملك حَدس الطمأنينة والقلق مثله.

وضروري في الحب حين نكون عشاقاً صغارا، دون أن نخبره أننا على وشك الوقوع -أو وقعنا- به. وقد يمتد عشقنا وتورطنا سنين طويلة دون أن يُلاحظ ذلك، لكنه ضروري، ضروري لأن نُخفي عنه توترنا وارتباكنا ونكدنا وضعفنا وقوتنا وفشلنا ونجاحنا... ضروري جداً حتى لو كان صامتاً أو قاسياً.

مشهد

«عزيزي الشهيد: أعتذر عن تصحيح ورقتك، فنحن لا نصحح للشهداء. بل هم الذين يصححون لنا»، هذا ما كتبه الأستاذ سامي عكيله على ورقة امتحان مدخل إلى العلاقات العامة للطالب فارس اسبيتة، والذي صار فيما بعد، بعد وقتٍ قصير، شهيداً، فالشهادة في غزة لا تأخذ وقتاً طويلاً، وكانت تُرمى في الحرب كـَ «السلام»، يصل طفل أو زوجين أو عائلة كاملة، وربما حي كامل، كالشجاعية والزيتون. وشكلت الأرقام على ورقة الامتحان تسلسلاً جميلاً كاستشهاد في آذار، وقت الامتحان ٨-٩، تاريخ الامتحان ١٠-١١-٢٠١٢.

مشهد

لم تعد تكفينا أسماؤهم، نريد قصصهم أيضاً، حكاية كل شهيد ولو كانت من سطرين، حتى لمن استشهد جنيناً في بطن أمه؛ له أيضا حياته وحكايته.

حكاية كل بيت، لم يعد بيتاً، كل شارع قصفت فيه شجرة، كل قطعة أثاث احترقت، كل ملعقة خسرناها بين الركام، كل ذكرى كانت... كل لمسة هواء كانت في طريقها لصدر الشهيد، تلفحه، تبرده، تنعشه، تضايقه.

مشهد

ماذا عن الذين تعرضوا للإعاقة في الحرب الأخيرة على غزة والحروب التي سبقتها؟ أولئك الذين وقعوا في المنتصف بين الشهداء والجرحى، فكانوا الأكثر إيلاماً!

لماذا لا يأتي أحد على سيرة ما صاروا عليه؟ من فقد يده، قدمه، عموده الفقري، نصف جسده، أو أكثر من ذلك، إنهم بعشرات المئات... من يُنقذهم؟ من يخرج منهم بقايا الشظايا النفسية قبل الملموسة؟

قضيتهم ليست بحاجة لتقارير تلفزيونية ضخمة، أو موجة إذاعية مفتوحة، أو مقالات مفصلة بأسمائهم وأعمارهم وأشكالهم الجديدة، الناقصة عضواً الزائدة كرامةً، ولا حتى خطابات النصر القريبة والبعيدة، التي تصدح هنا وهناك.

ولا قضية شيك بأربعمائة أو ألف دولار أمريكي، ليست قضية تعويض! فهي ليست هلعاً أو رعباً من قذيفة سقطت جانباً، بل من قذيفة ارتطمت بهم، بأجسادهم النحيلة والهزيلة أصلاً.

ومن كان يصعد الدرج وحده لن يفيدك أن تسأله: كيف تطلع الدرجات الآن؟

فقط بإمكانك أن تتخيل الموقف بأكمله كوب ماء فارغ وعليكِ تعبئته لتشرب، لتطفئ عطشك! فهل تقدر؟ إنه الماء الوسيلة الأولى للحياة.

أو أعطيك مثالاً أقل من ذلك بقليل، طفلة فقدت أصابعها وأتوا لها بألعاب كثيرة وجميلة، ثمة مفتاح للعبة وعليها أن تديره هي، هيّ المبتورة أصابعها، وما ذنبها أن ترى اللعبة تتحرك وترقص وتغني وتهز أطرافها بينما تجلس هي بكل حواسها لا تحرك إصبعاً واحداً، لا تُشير لشيء.

مشهد

لدي ألف صديق وصديقة من غزة، لا أريد لأحد منكم أن يستشهد. سيكون عادياً أن تُصابوا بكسرٍ خفيف في الرقبة أو القدم، لكن لا تستشهدوا الآن. وسيكون مؤلماً أن يُهدم بيت أحدكم، لكن لا تدعوني أفقد أحدكم، أعلم أني لم ألتقِ بأحدٍ منكم، وبالكاد نتحدث على الفيسبوك.. وربما لن نلتقي يوماً؛ لأنّ غزة الآن أبعد بقعة جغرافية عن الضفة الغربية. لكننا نستنشق ذات الهواء، فلا تتركوا حصتكم لي.

على الطائرات ألا تخطئ حتى لو قررت الخطأ، وألا تُصيبكم بسوء حتى لو شاءت ذلك، وألا ينفجر الصاروخ الذي سقط بقرب أحدكم لعطل فني، أريدكم جميعاً على الأقل لعامٍ آخر، لصباحٍ آخر.

مشهد

على الفلسطيني الواحد أن يموت واحداً واحداً، وأن يُعيد المشهد دون أن يُرعب قطة للأعداء، وأن لا يطالبَ بقبر جميل، أو وردة. هذا الكائن الغريب، القاتم، الغول، عليه أن يموت مصعوقاً بكهرباء سياج مستوطنة دون أن يؤذي السياج، وأن يموت في مطارٍ أجنبي دون أن يسيء للمنفى، وأن يموت طحناً تحت عجلات قطارٍ، دون أن يؤخر العالم دقيقةً واحدة.

وأن يموت ليتفاجأ العالم أن الفلسطيني يموت، وهذا ما لم يحدث إلى الآن.

مشهد

لا تُجربوا معنا كثيراً، ولا حتى بالقتل، غداً يعود الحمام إلى عشه الأول، وإن كان الطقس مُغبراً وقاسيا.. غداً يعود الحمام، غداً نعود.

لأننا ببساطة، أبناء هذا المكان، حتى اسألوا من يحمل منذ سبعين عاما مفتاح قُنَ دجاجه فوق سطح بيته الذي لم يعد قائما، اسألوهم واحدا واحدا، في لبنان وسوريا والأردن والعالم، قبل أن يفتحوا أفواههم ليجيبوا، ستتجه عيونهم صوب فلسطين.

الهبة الشعبية

حين انتهت الانتفاضة الأولى بقي منها العِصي فوق مآذن المساجد، حيث كانت تُعلق الأعلام فجراً وسراً. في مرحلة كان فيها علم صغير مهترئ يستفز إسرائيل بأكملها، فتأتي القوات المدججة، تجمع الشبان لمعرفة من رفعه، وتنزله. ظلت العصي وحيدة وحزينة لكنها لم تتكسر، فهي تعرف مواعيد الأطفال الذين وُلدوا ليرفعوا العلم مرةً أخرى فوق العصي التي تركها آباؤهم.

هذا الجيل من الأطفال عاش فترة ذُل ليس لها سابقة، فترة انكسار على جميع الصُعد، فترة هزل وطني، إلى أن نوى مهند، فحين يميل وطن، يُصوبه شهيد.

لا نعرف كيف بدأت، لم تكن مُدبرة، ولا كانت مُفاجأة! مرة واحدة انتفض الشعب وقال لا للإحتلال، للذل والقهر. في نهايات أيلول ٢٠١٥، في الساعات الأولى لفجر ٩/٢٢ استشهد ضياء على مفرق خُرسا قرب بلدة دورا في الخليل، في وقت كان الهدوء فيه يخيم على الضفة وغزة، بينما كانت القدس تشهد توتراً يومياً في المسجد

الأقصى بسبب اقتحامات المستوطنين لباحاته، وكانت أحياؤها وبلداتها تشهد مواجهات خفيفة إلى متوسطة خاصة في فترات الليل.

في جنازة وعزاء ضياء سيظهر شاب أسمر نحيف خفيف الدم، يُقبل رأس والد ضياء، بعد أحد عشر يوما، في شارع الواد بالقدس المحتلة، الساعة ما بعد العشاء بقليل، صرخات لِمستوطنين وهروب واطلاق نار، دقائق وينتشر الخبر، فلسطيني يقتل مستوطِنَين ويُصيب اثنين بجراح في عملية طعن.

قبل مهند بيومين، أطلقت مجموعة فدائية النار على سيارة لمستوطنين قرب مستوطنة ايتمار، القريبة من بيت فوريك شرق نابلس، قتلوا مستوطنا وزوجته، المسافة بين قبور دوابشة ومكان العملية ١٩كم، الرصاصات التي اخترقت السيارة ١٥ رصاصة. الفارق بينهما أربعة أطفال كانوا في داخل السيارة لم يصبهم المقاومون بأذى.

في اليوم التالي لاستشهاد مهند ذهبت إلى بيته، أعددت قصة صحفية بعنوان: «بيت الشهيد مهند الحلبي يفوح مسكا وكرامة».

منزل هادئ، في حي هادئ جداً، في بقعة جغرافية (سردا/أبو قش) هادئة، كل هذا المحيط الهادئ جداً، أخرج بالأمس غضباً تاريخياً على الاحتلال ومستوطنيه.

بعد أكثر من ٣٣ يوماً من إضراب غسان عن الطعام في سجون الاحتلال، احتجاجا على اعتقاله الاداري، خاف معتز أن يستشهد شقيقه دون أن يودعه، فعاد من فرنسا بعد شهر ونصف فقط من سفره بنية الاستقرار والعمل، وحين عاد، استشهد. استشهد معتز ولم يودعه غسان! هكذا تجري أقدار الفلسطينيين، دوما بما لا يشتهون.

حين خرجت جنازته فاضت شوارع بيت لحم ومخيم الدهيشة، كان الشهيد أكبر من الشارع، وعادت الجنائز لتكون هائلة. كما لاحقا ستخرج جنازة قصي في تقوع، الفتى الشهيد الذي صورته عدسة صحفي وهو يتناول الحجارة ويكومها في حضنه ليقذف بها الجيبات قبل أن يقتنصه الجنود بصدره، بعدها بأيام سيصحح أستاذ الكيمياء ورقة امتحانه النهائي ويضع له علامة ١٠٠ من ١٠٠، ربما لم تكن العلامة حقيقية، لكن من يستطيع أن يُنقص الشهداء علامة واحدة!

مضت الهبة تختار شهداءها بدقة، شباننا الأجمل، وكان منهم بهاء.

أستشهد المثقف، أستشهد من أحاط أسوار القدس وشوارعها بآلاف القُرّاء في آذار ٢٠١٤..

كتب بهاء في ١٦ آذار ٢٠١٥: «في مثل هذا اليوم تعرفت على ١٠ آلاف فلسطيني مثقف» من يستطيع اليوم، أو استطاع قبل اليوم أن يجمع ١٠ آلاف فلسطيني لمجرد دعوة صغيرة؟ حتى لو كان الأمر يتعلق بأكبر فصيل؟ أو حتى أكبر جنازة؟ ما هي المناسبة التي سيتذرع بها ليجمعهم؟ من يستطيع غداً أو بعد عام مهما كانت قضيته أن يجمع هذا الكم من الناس في ساعة واحدة دون مقابل؟!.

حسدتهم يومها، الطفل والصبية والشاب والمرأة والكهل، كل الذين لبوا الدعوة، فأحضروا كتباً وانتشروا في القدس، يقرأون لساعة أو ساعتين.

قبل استشهاده زرع في عقولنا واجب وعشق القراءة، وحراسة الوطن بالعقول.

هل يموت الانسان بطلقة!؟ هل يموت لمجرد أن دمه نزف في الشارع، وتوقف نبضه، وبكى عليه الأهل، وسارت البلد في

جنازته!؟. ألا يعود بين الذين اعتادوا وجوده؟ بهاء يقول لا. يرد على الطلقة بحياة أكبر، فتجوب فكرته للقراءة فلسطين جميعها، ثم تنطلق إلى الأردن والجزائر وغيرهما، لأنّ للشهداء أكثر من جنسية، وأكثر من وطن.

وحدهم الشهداء يملكون حق التنقل إلى كل العالم، دون تأشيرة، ودون أن يستوقفهم أحد، أو يعيدهم من حيث أتوا، ينتشرون في الأجواء، يمتلكون الهواء، بعد أن بدلوا عناوينهم، من الأرض إلى السماء.

اختار الاحتلال منذ بداية الهبة احتجاز جثامين الشهداء، ووضعها في ثلاجاته كوسيلة عقاب وترهيب، وحين يسلم الجثمان بعد أشهر عديدة، يضع شروطا قاسية للدفن، بأن يتم الدفن بعد منتصف الليل وبحضور ٢٥ شخص -أقل أو أكثر بقليل-.

لو يفهم الاحتلال ولو لمرة بأنّ الروح التي يحملها شعب، لا يحتاج جسدها إلى أعداد هائلة في التشييع.

لو يفهم أنّ بهاء لم يعد مُلكَ جبل المكبر أو القدس، وأن بهاء لا يعني مظاهرة ضخمة وشارع يكتظ بالغاضبين بعد صلاة الظهر، بهاء ليس قبراً!

ماذا ينفعكم احتجاز جثة هرب عقلها وانتصر، هل تظنون أن أحدث بندقية لديكم الآن بإمكانها أن تطلق النار وتصطاد ذلك العقل؟ أين سَتكمِنون له؟ في أي شارع أو حارة؟ تحت أي سماء؟ فوق أي أرض؟ في أي جسد ستجدونه الآن!؟

صار بإمكان فلسطيني واحد أن يحمله ويدفنه، دون أن يصيح بِكُم صيحة واحدة أو يلقي حجراً.

صارت مساحته اليوم أكبر مما تعتقدون.

إن شِئتم معرفتها اذهبوا لكل السطور التي قُرئت لأجله، والكتب التي تم اقتناؤها لأجله، والعقول التي تفتحت على الأدب الثائر، اذهبوا أيضاً إلى الأردن ومصر والجزائر، فهناك يُوجد بهاء في عقول من أحيوا فكرته.

ليلة تسليم جثمان البهاء، تابع ٢٢ ألف شخص البث المباشر للجنازة عبر صفحة مركز اعلام القدس، والتي سار فيها ٢٥ شخص، ما يعني أن الجنازة كانت ٥٢٠٢٢ شخصا. كنت منهم، من الذي أصابتهم قشعريرة الموقف، وجمال أن يعود المرء شهيداً.

في الأيام الأولى للهبة، تحرك الداخل المحتل تضامناً مع أهل القدس والضفة الغربية، وأصبح هُناك أطفال في حيفا يرمون الحجارة على الجنود، الأطفال الذين وُلدوا لآباء وُلدوا في السبعينيات، بعد ثلاثين عاماً على النكبة، الأطفال مات معظم أجدادهم الذين كانوا أطفالاً في عام ١٩٤٨، لم يطلب منهم أحد أن ينزلوا إلى الشوارع، لم يُحدثهم أحد بأن الهوية الزرقاء لا تعني شيئا أمام بحرهم الأزرق، لم تُنسهم الأبراج السكنية شكل القرميد العتيق وشرفات الورد والأزقة.

بَدَّلَ الغُزاةُ الجيران وأسماء الشوارع والميادين والحارات والمقاهي، إلا أنّ الأطفال هُناك عادوا بهم إلى حيفا الفلسطينية. منذ ٦٧ عاماً وهم يبدلون التاريخ دون أن يستطيعوا إقناع طفل فلسطيني لم يتجاوز السابعة من عمره أن حيفا ليست حيفاه.

نهايات كانون الأول ٢٠١٥، في مشهد سينمائي يدخل آلاف الجنود المشاة مخيم شعفاط، فتبدو كحرب صغيرة! المخيم مُستباح بأكمله في أزقته كافة وأسطح بيوته، لهدم منزل الشهيد عكاري، في هذا

المشهد يخرج طفل عن النص، مشهد لم يُدرجه المخرج، يخرج إلى الشارع يضع ثلاجة قديمة في وجه الجنود ويهرب. هذا ما يقدر عليه، لقد أدّى دوره، هذه نظرته للاحتلال، لن تمروا! مَروا، لكنه دافع عن الفكرة.

هدموا البيت صباحاً، ظهراً كانت سيارات الشرفاء تَلُفُ المخيم في أول حملة لإعادة بناء بيت مناضل هدمه الاحتلال، قبل أن تنتقل الفكرة لأماكن أخرى، لإعادة بناء بيوت مناضلين آخرين، في نابلس توقفتُ لخمس دقائق قُبالة صندوق التبرعات الخاص بإعادة بناء بيوت الأسرى التي فجرها الاحتلال في المدينة، كان المشهد مدهشا، الناس من مختلف الأعمار تأتي تضع ما تيسر وتمضي، لا تلتفت للكاميرات أو للمارين أو للقائمين على القضية، كل ستة ثواني يأتي متبرع، هيئات المتبرعين تُشير إلى أنهم من الفئة ميسورة الحال، وربما أقل، فالبسطاء دائماً يشعرون بقهر الآخرين أكثر من غيرهم.

بعد أيام تنتقل حملات التبرع إلى رام الله وبيرزيت، كان خاتم الصبية في بيرزيت بندقية. الفتاة التي وقفت فوق صندوق التبرعات المُخصص لإعادة بناء بيت الشهيد مهند الحلبي، وخلعت خاتمها وعقدها وإسوارتها في وضح النهار، حِليها تُشبه بنادق المُغر التي كانت تُزين صدور الثوار.

هذه الحلي التي استفاقت، يوم نامت البنادق، محشوةٌ بمعان أعمق من الرصاص.

ساهمت الفكرة أيضاً بخلق علاقة اجتماعية نفتقدها، جعلت طلبة كُثر يقفون لتحية أهالي الشهداء، ويحتضنونهم، في علاقة عابرة في الوقت، عميقة في الأثر والمدى. أحد الطلبة قَبل يد والد بهاء ووالد مهند، وكأنه يعتذر عن شيء ما.

والدة مهند تلبس عقداً طُبعت عليه صورة مهند، وتبتسم للجميع، ابتسامتها الخفيفة، مع لمحة حزن خَفي، منذ استشهاد ابنها.

حين عاد الاحتلال لسياسة هدم بيوت المناضلين، من شهداء وأسرى أوجعوه، رد الشعب الذي لم ينسَ كلمات أغنية «هي يا ولاد فلسطين»، لفرقة العاشقين في أواخر الثمانينات: البيوت الل هدموها الانتفاضة بتبنيها.

في مخيم شعفاط، الزقاق لا يتسع ليمر جاران، لكنه يتسع لآلاف يحملون شهيد، يتسع للأطفال الذين لا يفقهون السياسة ولا الحزبية ولا القومية العربية ولا الأطراف التي معنا والتي علينا، يفهمون أن الحجر قوي، الأطفال الذين رموا كرة القدم بعيداً وتبادلوا الحجارة، شِباكهم الجنود، وحدود ملعبهم السماء، لا حكم بصفارة يُعلقها على صدره ويوقف اللعب، كل طفل يحمل في حلقه صفارة، يُعليها متى شاء، لا يراوغ الأطفال في المخيم، يهرولون في خطٍ مستقيم، إلى هدفهم، طرد الجنود.

في كل شوط يرتاح طفل، لأنه أصيب، أو لأن والده اتصل به ليعود إلى البيت فوراً، هذا الطفل الذي يعرف في كل مرة كيف يخرج من الباب الخلفي، أو من النافذة، الطفل الذي يكذب حين يدّعي أنه لا يتواجد في المواجهات، ذهب ليشتري، أو عند صديق..

يعود أطفال الزقاق مساءً، وقد نقصوا واحداً، الذي سيصبح بعد ثوانٍ من الإصابة برصاصة شهيداً، هذا المهاجم، الذي اقترب أكثر، لم يقل شيئاً حين سقط، بل قال دمه: حررت متراً فتقدموا.

تتودد الفصائل للشهداء، لأنهم أكبر منها، يمد الفصيل يده ليد الشهيد، ولا يُسلم الشهيد، تمشي جنازة الشهيد، يعاود الفصيل مد يده على جسده، ويقول: هذا ابني، هذا ابني، لفوه برايتي، يقبض

الشهيد علم فلسطين بدمه، بفكرته، بأنفاسه الأخيرة، يمضي الشهيد إلى السماء، ويبقى الفصيل على الأرض.

في جنازة الشهيدة سماح بمنتصف كانون الأول، كان هناك طفل صغير يرقص على طرف الجنازة، يحمل علم فلسطين ويمارس دبكة غير مُتقنة، كان مبتسما، ظنها زفة! اقتربت من الطفل كان يردد كلمات غير مفهومة، فهمت أنه من ذوي الاحتياجات الخاصة، يذهب بعيدا وهو يقفز، ثم يعود وهو يقفز.

كل ما في الأمر أنّ الطفل يعيش في قرية لا تتعدى ال٤٠٠ نسمة، في ريف هادئ تماماً، بعيداً عن البلدات والمدن وصخب المناسبات الاجتماعية والوطنية، وَجَدَ الجموع والأعلام والكاميرات والسيارات، ففرح.

مرة أخرى وبلا مناسبة، عُدت لفيديو قصير صورته خِلسة من الجنازة، إلى ذلك الطفل الذي كان يحمل علم فلسطين ويمارس الدبكة والرقص بين صفوف المشيعين، بصورة واضحة أنه يُعاني من شيء، وإلا ما معنى أن يرقص طفل في الثانية عشرة من عمره وسط جنازة شهيدة، ودموع قرية بأكملها!

كُنت وقتها في تغطية صحفية لتلك الجنازة، لكنني تمردت على مهمتي، وبقيت أراقب الطفل، وهو يقفز في مكانه، ثم يذهب بعيداً، ليعود مبتهجاً، بينما كان رجال يصيحون على مقربة بأن طريق فلسطين هي البندقية، والاحتلال إلى زوال... إلخ.

بعد انتهاء التشييع، رأيت الطفل يجلس مع كومة رايات للفصائل، يخبئها خلف ظهره، كانت المرة الأولى التي أرى فيها الرايات مجتمعة بهذه الطريقة المؤنسة، جمعهم مجنون!

تبسمت واقتربت قليلا منه، شَعَرَ بالخوف، فابتعدت. وكأنه شَعَرَ أنه سَرَق شيئاً، إنه لا يعلم فعلته، لا يعلم أنه جمع ما لم يتمكن ملايين العُقَال والكفاءات والشهادات وأصحاب الوطنيات من جمعه!

الطفل الذي لم يتهم أحداً، ولم يتهمه أحد، بأنه من: أضاع القضية.

الثالث من شباط ٢٠١٦، ثلاثة فتية من قباطية تسللوا إلى القدس، في الوقت الذي لم يكن فيه بإمكان ذبابة أن تعبر فوق الجدار دون أن يلتقطها الاحتلال، اختاروا باب العامود، الذي سيُصبح لاحقا باب الشهداء لكثرة من استشهدوا على درجاته، قباطية البلدة التي تبدأ حدودها من «مثلث الشهداء»، تعرف جيداً كيف تحفظ حدها من الثورة الفلسطينية، ويعرف الاحتلال أن بلدة مثلها قادرة على تغيير حدود الاشتباك، وعلى أن تأتيه؛ حين ظن أنها ستظل بعيدة.

شهداء قباطية الثلاثة، لم يقتلوا أحد، لكنهم قتلوا المسافة القاسية بين جنين والقدس. بينما نخاف نحن، من أن يطلق أول جندي يصادفنا في الطريق، النار علينا بحجة مرورنا قربه، ذهب محمد وأحمد ومحمد إلى قلب القدس، مروراً بعشرات الحواجز، وآلاف الجنود والرصاصات الجاهزة، كانت عين الله ترعاهم، أطلقوا ما استطاعوا من النار والسكاكين، قبل أن يستشهدوا بسهولة، قطعوا مسافة ٩٣ كم من جنين الى رام الله، ثم ١٩ كم من رام الله إلى القدس، هذا في حال المسافة الطبيعية، لربما احتاجوا عشرات من كيلومترات أخرى للوصول، هذا لا يهم، لا المسافة الطبيعية، ولا المسافة الطارئة تهم، لم يقدروها بالكيلومتر، قدروها صعوداً إلى الله، فوصلوا سريعاً، مطمئنين.

لأنها لا تقبل استثناءها، يطلع الشهداء منها. منذ كنا صغارا ونحن نسمع بقباطية، وهي لا تحتاج لأسماء وشعارات كما يكتب البعض على المداخل، الصمود والتحدي والشهداء وبلد الثوار وقابر وقاهر اليهود. الخ، قباطية لا تقبل أن يُكتب على مداخلها يافطات الأشعار الوطنية، ينوب عنها الشهداء بدمهم وتضحياتهم.

يستطيع أي إنسان أن يقرأ سجل الشهداء ليجدها الأولى، منذ الشهيد أحمد أبو الرب عام ١٩٣٦، حتى العام ١٩٩١ قدمت قباطية ١٠٠ شهيد! أي أنّ الاحصائية لا تشمل الانتفاضة الثانية، وآخر شهدائها في انتفاضة القدس (١٢ شهيدا). هي لا ترمي بأبنائها إلى الموت، بل تقول: ما زلتُ أنا، فِيَّ الشهداء حتى التحرير.

منها خرج رائد زكارنة، منتقماً لمجزرة الحرم الابراهيمي في الخليل، مفجرا نفسه في العفولة، في بدايات العمليات الاستشهادية. وفيها قُتل أول الجواسيس بقرار من الثورة، وعلق على عمود كهرباء.

ستة كيلومترات، المسافة بين قباطية وجنين، حيث المخيم العظيم، في الانتفاضة الثانية كان مخيم جنين هو العنوان الأوضح في التصدي للاحتلال.

أنتَ لا تخاف حين تسمع في الأخبار أن الحدث هو مخيم جنين، تطمئن جداً، البقعة التي لا يحتاج فيها الإحتلال إلى من يحذره، فهو يُدرك جيداً أنها غير مطمئنة له.

هذا المكان بالذات ليس رخواً.

منذ معركة نيسان ٢٠٠٢ والمخيم في ذاكرتي أشرس من دافعوا عن أنفسهم، قالوها بصوت الرصاصات المتقطع على مدار أسبوعين، قالوها بأجساد مقاتلين صَدَقوا شعار: لن تدخلوا إلا على

جثثنا، فكانت جثثهم شاهداً، وكانت جثة أبو جندل وهي تتكوم على بعضها فوق كومة أحجار خير جثة.

عادَ المُخيم، كبُرتْ نجوى، واختَفَى مُوفاز!.

لم يكسَبْ أحد، لمْ يخسَرْ أحد، لكنّ الرّسَالة رُفِضَتْ، رُفِضتْ بالدّم، وصارَ في المُخيمِ مواليد جُددْ، وحارات جديدة، وصار الأطفالُ رِجالاً مرةً أُخرَى، عِوضاً عنْ الذين ذهبُوا.

مُتْ رافِضَاً!.

زمن النقيفة

أنا من جيل يؤمن جداً بالحجر، جيل كان يشتري مُغيط «مطاط» من مصروفه الخاص، والقليل جداً، ليصنع به نُقيفة «شُّعبه»، جيل كان يبحث بين الصخور والتربة عن أكثر الحجارة الصغيرة صلابة، ثم يمشي بخفة وحذر بين أشجار الزيتون يُراقب قدوم سيارة مستوطن، ويبدأ بالقفز إن كان القادم باص إيجد، فهو أكثر طولاً وغالباً يُكمل سيره حتى لو تعرض لحجارتنا، كُنا جيلاً يقذف الحجارة ويهرب سريعاً، وأحيانا لا ندري إن كانت حجارتنا أصابت الهدف أم لا، لكن بوعينا في وقتها كان الحجر أملنا في التحرر.

حدث هذا قبل أن نكبر، ونتوزع بين رايات الفصائل وألوان الاحزاب. حين تنتهي الأحزاب والتنظيمات، تبدأ فلسطين.

مرة أخرى يعود الأولاد لرمي الحجارة وإشعال الإطارات المطاطية، ربما كانوا عشرة فقط، ليس غير، ربما كانت حجارتهم صغيرة، لا تصل، ولا تؤذي أحداً، ولم يُطلق عليهم الرصاص

بكثافة، ولم يسقط شهيد جديد. لكنهم لم يسمحوا للشارع بأن يكون نظيفًا! وهذا يذكرني بتقرير صحفي أعددته حول أكثر الأماكن شراسة في الهبة الشعبية، حين كتبت فيه أن الهبة الشعبية زينت مداخل مدن وجامعات.

هذه الحجارة التي سَدت الشارع، ورماد الاطارات، زينة لمن يفهمها.

أعاد الأولاد الذين نزلوا إلى الشوارع، زمن الانتفاضة الأولى، زمن أغنية وليد عبد السلام:

شدلي النقيفة عاد خلي ايدك عالحجر

تنبدل هالحال بحال عيشة تنفع للبشر

في ذروة انتفاضة الحجارة بنهاية الثمانينيات، كان رائد، ولقبه الثوري «الخُزق»، لضعف بنيته الجسدية ونحافته الواضحة، المسؤول عن رفع العلم فوق مئذنة المسجد، كانت هذه مهمته الوحيدة في انتفاضة الحجارة، في المناسبات الوطنية وأيام الإضراب التجاري والعصيان المدني.

يصعد الخزق فوق سطح المسجد، عبر سلم حديدي تُحضره الحاجة عائشة بعد صلاة الفجر مباشرة، ثم ينتقل إلى بوابة المئذنة يصعد درجاتها ليُثبت العلم في أعلى المئذنة، وعائشة تدعو الله في صلاتها أنْ يُسلمه من الجواسيس والجيش.

ينتهي الخزق من رفع العلم، وينسحب ملثماً بالشماغ الأبيض والأسود، قبل الظهر يلاحظ الجنود الذين يأتون يوميا إلى مدخل القرية وجود العلم، دقائق وتحضر قوة كبيرة من جنود الاحتلال، يفرضون منع التجوال عبر مكبرات الصوت، يستدعون المختار

وإمام المسجد، ويجبرون فتى على إنزال العلم، ثم يصادرونه.

يكرر الخزق وعائشة الفعلة، مما يدفع بضابط المنطقة واسمه إسحاق، إلى تجميع شبان القرية في ساحة المسجد وتنبيهم شفوياً، وتهدديهم في حال رفع العلم مجدداً.

ماتت عائشة في عام ٢٠٠١، ورحل الخزق عن الوطن في عام ٢٠٠٤، إلى أمريكا، وصار العلم يُرفع في كل وقت ومكان، بعدما كان يحتاج إلى عمل سري وتخطيط لِليالٍ عدة، يوم كان مهمة ثورية وقاهرة.

كانت جدتي التي لا تُطيق سيرة الجيش وجيباته، تحتفظ بسماعة من زمن الانتفاضة الأولى، تقريبا منذ عام ١٩٨٨، سرقتها منها، وأضفتها لأشيائي القديمة التي أحب الاحتفاظ بها، هذه السماعة التي بعمر ٢٧ عاماً كانت صوت الانتفاضة الأولى، صوت الجماهير، كان صوت واحد منها يكفي ليعم الإضراب الشامل، وإشعال الضفة، في زمن كان يُعتقل فيه على الصوت والأغنية وكتابة الشعارات على الجدران، وحيازة كتب سياسية وبيانات وطنية.

غير بعيد عن قصة «الخزق» كانت حكاية عبد الرحمن، ابن حارتي، في نهايات عام ١٩٨٩ كان عبد الرحمن يبيع الجبنة، قبل أن تكتشف المنطقة (القرى الممتدة ما بين سلفيت ورام الله وجنوب نابلس) أن مهنته وجبنته لم تكن إلا غطاء لتوزيع مناشير الانتفاضة. في مغارة الخياط الواقعة ما بين القرية وعبوين، ألقوا القبض عليه، كانوا اثني عشر جندياً وجاسوسين اثنين.

استباقا لما قد يجري راح يقول بخوف واضح: أنا راعي غنم، هاي جبنة بتعملها أمي العصر وبوزعها المسا.

فتح الضابط واسمه اسحاق القَصة، وأزال أول صفين من الجبنة ليكتشف مئات النسخ من بيانات القيادة الموحدة للانتفاضة تحتهما.

صرخ في وجهه: أنت من شباب فتح، كل الشباب اللي زيك بيبيعوا جبنة بدنا نعتقلهم خمس سنين.

ثم غاب في خيام مجدو حتى منتصف عام ١٩٩٤.

عودة إلى هبة ٢٠١٥، في إحدى المواجهات شمال رام الله، دارت رصاصة، دارت وأصابت رأس الختيار الذي يبيع الترمس على مدخل المخيم، دوما كان الرصاص يُصيب الفقراء، وكانت الثورات تقوم على أجسادهم.

في المحكمة المركزية في القدس المحتلة ظهر الطفل معاوية علقم «١٢» عام، خلال جلسة محاكمته، بسُترة الشاباص، المقاس أكبر بكثير من ذارعيه، أكبر من عرضه وطوله، أكبر منه! لم تتوقع اسرائيل يوما أن يُصبح الأطفال في هذا السن وهذا القوام مُستهدفين من قبل عناصرها الإجرامية. فلم تُنتج سُتَر سجونها للأطفال، إنما أنتجتها للشبان والكبار.

معاوية أصغر من سُتر السجون، أقل من تهم محاولة قتل، يُحب الربيع والملاعب.

سُترة معاوية تقول للعالم: السجون لم تخلق للأطفال.

زمان كان الوطن أكبر من اليوم.

الوطن على مقاس الرجال هو الوطن، بل يكبر. وعلى مقاس الأنذال فيختلف. ماذا يعني وطن وكم حجمه؟ هذا سؤال يعني الشهداء. حين يتلاعب أحدهم بجغرافيا الوطن، يطل شهيد ويعيد الحدود إلى أصلها، الشهداء ليسوا جثثا دفنت بجانب بعضها في

مقابر قرانا ومخيماتنا ومدننا، بل ينتشرون بدمائهم وأرواحهم على حدودنا. إن كان الله قد زرعهم هناك، فَمن ذلك الذي يستطيع أن يتخطاهم أو يخرجهم، إنهم يتخطوننا ويخرجوننا ويحرجوننا، هم الباقون. وطن يحرسه الشهداء.

مئات الشهداء، وآلاف الجرحى والأسرى، نقاط التَّماس مع الاحتلال، البقع الجغرافية بأكملها، الوطن جميعه كان ينتظر مهند لينتفض. وفي ضباب ومطر وبرد ليلة التاسع من يناير هدمت ثلاث جرافات ضخمة، ترافقها ٤٠ دورية عسكرية، بيت الحَي مهند، كل هذا ومهند الآن جثة شريفة تحت التراب، بالتأكيد أنهم لن يجدوا عوائق كبيرة في طريقهم، ولن يجدوا أحدا ليصدهم، لكنهم جاؤوا بهذا الحجم، لأنها الفكرة! فكرة روح مهند التي نمت في هذا البيت، وكبرت في هذه الأجواء، الفكرة ترعبهم أكثر من الأجساد، أكثر من أحياء يمرون في الطريق أو يحيطون بمنطقة نشاطهم الأمني، هدموا البيت وانصرفوا، ذهبت صباحا إلى هناك، مع أن المسافة من مكان العمل في المصايف إلى سردا أقل من عشر دقائق، لكنني تمنيتها لو كانت ثانية واحدة، نزلت من السيارة، كانت أم مهند تبحث بين الركام عن شيء يعنيها، وقفت بجانبها، خجلت في البداية من التحدث إليها، وبصوتٍ متردد سألتها: على إيش بتدوري خالتي؟ قالت: على شتلة نخيل زرعها مهند! هكذا تصبح الأمور بسيطة، في وقت المصائب الكبيرة، نبدأ بداخلنا في البحث عن الأمل والفرح مهما بدا صغيرا.

هُدم البيت، وبقي مهند، يعتقد الزائر لبيته أنّ صور مهند المتبقية على الجدران، قد أُلصِقَت صباح اليوم بعد الهدم، لكن في الحقيقة أنها ما قبل الهدم، كانت الجرافات تُسقط الجدار إلى أن يتبقى منه جُزء بسيط، هذه الأجزاء هنا وهناك من البيت، هي التي ظلت تحمل صورة مهند.

طفل لم يتجاوز الأربع سنوات، على مقعد بجانب أمه، وسيارة الأجرة تلف دوار فلسطين في البالوع، يقول لشقيقته الأكبر بعامين أو ثلاثة: مهند الحلبي، مهند الحلبي.. ثم يقول بضع كلمات لم أفهمها.. هذا ليس مهما، ما يهم أنه أعادني لأيام الطفولة بمنتصف التسعينيات، حين وعى جيلي وكبر على اسم يحيى عياش.

سيتذكر الأطفال غداً أسماء من دافعوا عنهم، سيقولون: كان على جيلنا مهند الحلبي.

يذكرني مهند والعياش بما كتبه الشهيد ماجد أبو شرار للشهيد باجس أبو عطوان في ١-٩-١٩٧٤: «حين سقط باجس شهيداً، تلفت الفلاحون إلى الجبل، فمن قلب الجبل أتى باجس، وحتما سيأتي الجبل بآخر يأخذ مكانه».

في مرحلة ما، الواقع فيها لا نشتهي استمراره طويلًا، لا بد أن يمر المرء من شارع سردا - أبو قش الرئيس، ويتوقف قليلًا عند تقاطع الشارع الذي يهبط إلى حي البساتين، حيث نصب مهند الحلبي، عذراً على عدم ذكر لقب الشهيد قبل الاسم، بعض الأسماء لا يليق بها إلا أن نكتبها وننطقها مباشرة.

هناك، حيث النصب الصغير جدًا، وصورة مهند بالأبيض والأسود، في مساحة لا تتعدى حجم قبره، هناك ينتشر مهند في عقول من أدركوا عظمته.. مقعده الدراسي في أبو ديس، صرخاته في شارع الواد بالقدس، جسده في مقبرة الشهداء بالبيرة، قلبه على فلسطين.

فجأة تقفل نشرة الأخبار الباهتة، لتتذكر مساء السبت، الثالث من تشرين الأول ٢٠١٥. حين كان المذيع والمستمع والوطن بأكمله ينتظر معرفة اسم الشهيد.

كُنا بحاجة لأن نودعك، ونلمس يديك، واحدا واحدا، لنشعر بالدفء والأمان، ونسأل بعضنا: مُنذ متى صار هذا الولد أبانا؟!

كفك الناعمة، كفك التي لم تخدش يوما قطة أو وجه طفل، كفك الصغيرة جرحت العدو الكبير، كفك العادية حملت الوطن وقالت: من هُنا.

كفك هي الطريق الصحيح!

في مثل هذا المساء قبل عام تغير شكل البلاد، حين حرر مهند شارع الواد لدقائق معدودة. دقائق لا تُحسب على مقياس الساعة العادية، تُحسب على عُمق الشهداء.

مهند جعل الثالث من تشرين الأول يوماً مباركاً.

على أحد في الزمن القادم أن يخلع من أرض شارع الواد، كل حجر سال دمك الصادق عليه، ولتكن المرة الأولى التي نتجرأ فيها على تلك الفعلة السعيدة والمشرفة، ولتوضع على مدخل البلاد، قبلة للمارين.

ستستمر الهبة قوية شهرين أو ثلاثة، قبل أن تتحول لمقاومة فردية، بعد دوار فلسطين، المدخل الشمالي لمدينة البيرة، بأمتار قليلة، وعلى امتداد أكثر من مئة متر، على الجانب الأيمن للخارج من البيرة، باتجاه ضاحية التربية والتعليم، حيث مستوطنة بيت ايل، تنتشر بقايا اطارات السيارات التي اشتعلت في بداية الهبة الشعبية في تشرين الأول ٢٠١٥.

عاد المكان إلى هدوئه الطبيعي، كما في باقي المناطق، حيث تراجعت الهبة التي لم تتحول إلى انتفاضة، رغم انها تميزت بمعايير وصفات خاصة بها، وكان السكين عنوانها. لأن الانتفاضة تعني أن ينتفض الشعب، لا فئة أو بقعة، وهو ما لم يحدث.

بعيداً عن المقارنة بين الاثنتين، أو تحليل هل انتهى شوط أم انتهت المرحلة بأكملها، ذهبت في بداية الأحداث إلى معظم المواجهات التي دارت هناك، وبقيت صور الحجارة والمتاريس والاطارات المشتعلة والزجاجات الحارقة وقنابل الغاز والرصاص والملاحقة والدهس والاعتقال في خيالي.. أكثر من سبع مواجهات قمت بتغطيتها، واستمرت لأكثر من ثلاثين ساعة، كل تلك الصور والاحداث رأيتها اليوم وأنا أسند رأسي على نافذة السيارة وأطل على المكان، في مدة لم تزد عن عشر ثوانٍ.

على دوار فلسطين «البالوع» تنفرط الطريق أمام القادم من شارع نابلس في مدينة البيرة، باتجاه مدن شمال الضفة، أمام السائق ثلاث خيارات: يدور عودة إلى البيرة في استدارة شبه كاملة، أو يكمل في خط مستقيم هبوطا إلى شمال رام الله، أو يميل إلى اليمين، على مسافة ١٥٠ متر - يُرى جنود حاجز المحكمة "DCO" بالعين المجردة - يسمعون ضحكات المارة أمام فندق ستي إن، يعدون السيارات التي تصطف لتعبئة الوقود من محطة الهدى، يشمون رائحة القهوة المعدة في مقهى ريو.. فالجنود في قلب المدينة بنظر الذين يحسبون الاحتلال بالخطوة.

تمشي السيارة هبوطا إلى وادي البلاط، مطلين من فوق على جفنا، بلد المشمش والهدوء، ثم عين سينيا، حيث وفرة ينابيع المياه تنعكس خضرة وجمالا على القرية، على دوار عين سينيا الذي قَبَحهُ جنود الاحتلال ببرج عسكري قريب، سرعان ما ينفلت منه قردان أو ثلاثة ليضعوا في وجوهنا حاجزا طيارا، يتسلون بنا في أوقات فراغهم، يدق الجندي على زجاج السائق طالبا هويات الشبان، يمررها واحدة واحدة على عينيه بسرعة البرق ثم يقول: ساع. أي امشِ واسرع.

على مفترق «عيون الحرامية»، الطريق التي قال لي مرة عجوز من قريتنا أن سبب تسميتها يعود إلى أنها مخيفة، وكان الواحد يهاب المرور منها وحيداً، أو ليلًا.

أمامك خياران فيها، إما أن تأخذ اليمين فتدخل رام الله عبر قراها الشمالية، أو تستمر مستقيما في اتجاه القدس والجنوب وقرى رام الله الشرقية.

على المفترق يجلس بائع الخروب، في مشهد قاس، بعد تعرض قدمه للكسر، قبل ذلك كان يتجول بين المركبات المتوقفة على المفترق بانتظار المرور، ينادي على خروبه، وينادي العطشان، وبالكاد يبيع كاسة خروب واحدة لكل مئة سيارة.

والموجع أنه تعرض للكسر قبل أيام فقط، أي في ذروة اشتداد الحرارة، وليس أمامه إلا الجلوس على طرف الشارع، حيث لا ظل شجرة أو ما يقيه، اضافة إلى أن مكان جلوسه يعتبر الأخطر من حيث التعرض لحوادث السير القاتلة هناك، نادرا ما لا يموت أحد في حادث سير، حيث تأتي المركبات من فوق مسرعة، وفي ذات الوقت يتهور بعض الواقفين على المفترق فيدخلونه بسرعة، فتتلاقى المركبتان.

وهناك أيضاً لا يوجد تجمعات سكنية قريبة، في حال احتاج شيئاً أو أحداً، ويمر المستوطنون بكثافة، أي مستوطن حاقد بإمكانه أن يجرفك في طريقه ويمضي.

حتى أولئك الذين يودون شراء الخروب، يتوقفون هناك بصعوبة بالغة، لأن في الوقوف قبالته، قبله أو بعده، مجازفة كبيرة.

هذا الذي لم يسأله أحد لم أنت هنا.

على بعد أمتار فقط من كل هذا، لا يخجل الاحتلال من ثائر حماد،

ففي مثل هذه الأوقات من كل عام، يحتفل الاحتلال بقيام دولته، في المكان الذي كان «حاجز عيون الحرامية»، أعلام وكراسي وتنظيفات وسيارات ومكبرات صوت، مستوطنون وجنود وضباط وقيادات ورُتب عسكرية عالية، يأتون جميعًا للمكان الذي خلعهم منه ثائر، يوم اصطادهم كالفئران، ظهيرة الثالث من اذار ٢٠٠٢، وعاد لبيته استحم ونام فترة القيلولة. وكأنه لم يقم بعملية تاريخية ونادرة جدًا في تاريخ الصراع.

لو كان بهم خجل لمسحوا عن الوجود المبنى الصغير وما حوله من مدرج صغير الحجم أيضا، والأشجار والصخور، لغيروا الطريق كاملًة.

في الطريق إلى نابلس، أتذكر معين بسيسو بمقطع « الآنَ أين تُعلّقُ الشُّهداءَ» في قصيدته سفر على سفر، على مكعبات اسمنتية وضعها الجنود لحمايتهم قرب دوار قوزة الصغيرة، الواقعة على أطراف حوارة ومقابل مدخل بيتا، كتب الشبان ليلة الجمعة، حيث يختفي اليهود من الشوارع من عصر الجمعة وحتى عصر السبت، بمناسبة سبت اليهود، كتبوا: مهند الحلبي. قبل هذه المرحلة كان الشبان يخطون عبارات تهدد الاحتلال تحت اسم الفصائل، بطلقات وصواريخ وعمليات استشهادية، لكنّ عاما كاملا من انزواء كل تلك التنظيمات، وسكوتهم على تمزيق الرصاص لأجساد أكثر من ١٧٠ شاب وشابة قضوا شهداء بعد تنفيذهم أو بحجة محاولتهم القيام بعمليات طعن، جعل من أسماء أولئك الشبان الصغار رعباً يخطه الشبان في وجه الجنود، مسقطين الساكتين والساقطين، والمنشغلين بأمورهم ومناصبهم وعروضهم وحروبهم الداخلية النتنة.

لم يعودوا يصلحون لأكثر من الحديث على عتبات البيوت، كالعجائز.

في طريق جنين، في حوالي الرابعة عصراً، من أيلول ٢٠١٦، كنت في الطريق من جنين إلى رام الله، طلّ طفل عن تلة قرب برقة، ألقى زجاجة حارقة على شاحنة تنقل جرافة عسكرية كبيرة تحرسها ثلاث جيبات، لم تُصب أحدًا بسوء، سقطت بمنتصف الشارع، انكسرت واشتعلت، تناثر زجاجها على مساحة الوطن، بالكاد دخانها الأسود يُرى، لضآلتها، لكنني دققت فيه لما هو أبعد، فخرج من بين الدخان أطفال يلقون حجارة ويشعلون إطارات ويضعون متاريس، ويحملون علم فلسطين وحده..

استنفر الجنود بعد أن هبطوا من جيباتهم، وأغلقوا الشارع لدقيقة ونصف، ورفعوا سلاحهم في وجه السيارة الأولى من خلفهم، كي يخيفوا سائقها الذي وقف مكانه.

هرب الطفل بعد أن حرر شارعًا مهمّشًا لتسعين ثانية!

حَدَثٌ كهذا لا يأتي على نشرات الاخبار أو الصفحات الاخبارية، ولا تتسابق لشرحه، لأن أصابع الطفل بيضاء وحمراء وسوداء وخضراء. أصابع لم تَرمِ بلون واحد!

ولا يشاركه الناس على صفحاتهم، رمى الطفل وغاب، خلف الزيتون والعشب..

ذكرني هذا الموقف، بيوم كنت عائداً إلى قريتي في حزيران من العام نفسه، بعد مؤتمر صحفي للفصائل بشأن إضراب أسير عن الطعام، وبعد جهد الانتباه الشديد لكل حرف يقوله كل فصيل، ومسميات المتحدثين، أُخطط لعنوان يليق بالحدث، لمحت حصاناً يحرث الأرض، يقوده جارنا الفلاح «أبو هاني»، بسرواله المرقع،

وقميصه العفن، وعرقه البُني، قلت له: الله يعطيك الصحة. رد بتعب: الله يعافيك. شرب جرعة ماء، ومضى في الحراثة.

دخلت البيت، فتحت حاسوبي، وبدأت بكتابة تفاصيل المؤتمر الصحفي، وأهم القرارات التي قالها المتحدثون بارتياح بعد أن شربوا أنواعاً شتى من العصائر، وتذوقوا حلوى أُعدها مهرة، حصلوا على قُبل من أناس كثر، وقال لهم الناس: دُمتم للوطن.

قبل سنوات قليلة استولى حمار أبي ابراهيم على قلعة الثورة! لعلها مصادفة قاسية، حقيقية وغريبة، أن يتحول البناء القديم المهجور إلا من الحمام البري، من قلعة الثوار، بحسب ما كان يطلق عليه منذ بدايات ١٩٨٨، إلى بيت لحمار أبي ابراهيم، صاحب أقرب بيت على المكان.

في البيت المُكون من طابقين على نظام بيوت الأجداد في الأربعينيات، حيث للحمار زاوية، وللأغطية زاوية، وللحطب والمطبخ والضيوف والشتاء والصيف زوايا، لكل شيء في تلك الحياة زاوية.

في ذلك البيت الذي تركه أصحابه، وهاجروا إلى البرازيل في عام ١٩٧٦، اجتمع شبان انتفاضة الحجارة الأولى أول مرة، وفيها أعلنوا بيانهم الأول، والذي جاء فيه: علم فلسطين فوق مئذنة المسجد القديم، علم فلسطين فوق سور مدرسة الأولاد، علم فلسطين فوق حاووز الماء، قذف سيارات المستوطنين المارة على الشارع الرئيسي في حدود الساعة التاسعة من مساء كل يوم خميس، إشعال إطارات السيارات على العَبّارة -المدخل الشرقي للقرية، والجسر -المدخل الجنوبي للقرية-، توضع الحجارة الضخمة وبقايا الأثاث المنزلي المهترئ وكل ما يرميه الناس من أفران وثلاجات وغسالات على حواف الطريق، على مقربة من

موزع الكهرباء الرئيسي.

حمار أبي ابراهيم ذكرني بأيام المدرسة، حين كان في صفنا طالب غبي وثقيل دم، تناديه المدرسة «جحوش»، كان أكبر منا «بشوية» سنين؛ لأنه رسب كثيرا. كبر جحوش واشتغل بالقضية وصار صاحب منصب يدين ويرفض ويدعو ويتضامن ويفكر ويخطط، وأصبحت صورته تشاهد في نشرات الأخبار، ويختنق من قنابل الغاز وتكتب الجريدة: أصيب في المواجهات... «جحوش»، مرة فتحت الاذاعة وسمعت صوت يقول: أطالب ب... كان يومها صوت جحوش، وكانت المذيعة مثل هالشعب تعتقد أن هذا الصوت أمين وقوي ولصالحنا.

وحين لم يعترض أحد، صار جحوش يتحدث بالقضايا العربية والاقليمية والدولية، ومن يوم ما «جحوش» اشتغل بالقضية وهي بترافس!

وجَحوش يُعد جحاشا صغارا يرافسون معه، لذا لم تعد القضية تعرف أين تدور بحالها، لأنه في جحاش يذهبون بها شمال ويمين، لو يتركوها بحالها لمشت دغري!

الطريق إلى البيت

في البيت أستعيد ذاكرتي وذكرياتي، أقول لعزلتي: هنا العالم. من سماعة خشبية قديمة أوصلها ابن الجيران في حاسوبي المنهك، تنطلق أوبريت طيور الوطن التي كتبها محمد توفيق القباني (ولد في القدس وتوفي في عمان) في سنة ١٩٩٦:

احنا اللي سمونا صور.. احنا اللي سمونا صور.. غلطو، احنا اللى قلنا للورق احكي.. احنا اللى نعطي وبس ما نشكي.. احنا اللى نعرف وبس ما نحكي.. احنا على طول المدى صابرين..

احنا على ظلم اللى راحو.. صابرين، واللى اجو.. صابرين.. واللى ادفو بالدفى، صابرين ... خلونا بردانين.. بردانين، احنا يا جمعه خير.. بردانين

عمر الفرح ما هاجر قلوبنا.. رغم الألم، بنضل مبتسمين.. رغم الألم

احنا قدرنا نعطي أمل لقلوب محرومة، ونهدي لكل العاشقين..

مواويل ...ياه.. ياه ياليل

واحنا فخرنا.. نجدل ضفاير هالوطن.. وانترجم القول الفعل.. نفتح مدارس فى الصور

هي هي هي حنا طيورك يا الوطن.. وخيوطنا مربوطة بترابك

احنا كتيبة جند، احنا سفارة، احنا اقتصاد، واحنا سياسة، واحنا فخر، واحنا كمان مجرى نهر، واحنا صدر للى ورانا واحنا جسر، واحنا كمان بنشد فينا كل ظهر

هي هي هي هي واحنا الشموع اللى ضوت بس ما انطفت.. بس ما انطفت

أفتش في حاسوبي بطيء التشغيل، الهرم، في مقاطع فيديو اقتطعتها من مسلسلات أعود إليها كلما شدت العزلة حالها، «التغريبة الفلسطينية، وبانتظار الياسمين»، وأبكي وحدي حالتنا الوطنية والمعيشية، أبكي هذا القدر الذي رمانا في كل هذا القهر.

أقلب ملصقات غرفتي من صور حيفا وبيروت ومعين بسيسو ومريد البرغوثي ومحمد شكري وهنري ميللر وآدم حاتم وعلي فودة ويحيى عياش وثائر حماد، وغيرهم من الأدباء والمدن والقادة والطرق الترابية واللوز، وصور لفرق ريال مدريد، ويوفنتوس، ومنتخب إيطاليا، هكذا وُلدت، ولا علاقة لي بهزائم من أحب، أحافظ على محبتي للأشياء وأحياناً أحبها أكثر، حين تنكسر أو تُذل، ومنذ الطفولة كُنت جزائرياً، أحب الجزائر، أشتري علمها، أشجع منتخبها، وأقول لناسها: أذكر أنني عشتُ شيئاً من حياتي في الجزائر. أحرض الناس لعشقها، أصدقائي، عائلتي، حارتي، أينما ذهبت قلت للناس: حبوا الجزائر. في مباريات المنتخب الجزائري في كأس العالم ٢٠١٤، أصبح الأطفال في بيتنا، والبيت المجاور،

والذي بعده، جزائريين، كل بيت فلسطيني في الوطن هو بيت جزائري، أقدامهم في الملعب أقدامنا، وهمتهم همتنا، التصقنا بهم، فمن يقدر على تفريق الشهداء!

هو الحب.. لا سرّ بين فلسطين والجزائر، في عام ١٩٨٢ استقبلت الجزائر ٥٨٨ مقاتلا فلسطينيا، بعد خروج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت، وسبقها فتح معسكرات تدريب للمقاتلين الفلسطينيين، ومنح الدراسة والأموال.

عاش ودرس وعمل فيها قادة وشهداء، أمثال الشهيد خليل الوزير (أبو جهاد)، وأبو علي إياد، وعلى أرض الجزائر كان المقر الأول لحركة فتح، وبقيت الأرض التي ترفض أدنى أشكال العلاقة مع إسرائيل، إضافة إلى لبنان.. وفي ١٥-١١-١٩٨٨ أعلن الشهيد ياسر عرفات من قاعة الصنوبر في مدينة الجزائر العاصمة، استقلال دولة فلسطين، وكانت الجزائر أول دولة في العالم تعترف بدولة فلسطين.

في عمان سألتقي بفتاة وشاب من اصل فلسطيني، وسيهدياننني علم الجزائر، قادهما الاحساس لذلك، وإلا كيف يُهدي منفيان من الوطن، آخر محتل في وطنه، علم وطن مختلف.

وفي الجزائر تربت دلال، أمضت فيها أربعة أعوام في صغرها، حتى حين التقينا بعد عشرين عاما من رحيلها عنها، كانت ما تزال تحتفظ برائحة البحر هناك، حتى أنها مرة صفنت، وقالت: وكأنني بالأمس فقط رفعت بنطالي إلى الركبة وغصت في مائه.

أشترك مع دلال في أننا نملك ذاكرة تعود كثيرا للوراء، وتُعيد الأشياء كما لو أنها تحدث الآن.

حين وضعت رأسي على صدر دلال أول مرة، وأنا في السابعة

والعشرين من عمري، ضحك فيَّ الطفل الذي كانت الجارات يسرقنه من حضن أمه ليقرصن خديه.

لم أفرغ ذاكرتي يومًا من انسان أو مكان أو زمان، كل الذين أخذتهم الحياة مني إلى أمكنة أخرى، كتبتهم، مع عناوينهم الحالية، حتى أولئك الذين ماتوا، أحدثهم إلى أين وصلت الأمور، أتعامل معهم أكثر من الأحياء، لا أعترف بغياب أحد إلى الأبد.

لم تغب عن ذاكرتي أشجار الحارة، حتى ما كان منها مجرد جذع يابس، وتلك التي صعدت في مكانها بيوت، في وقت كان لنا فيه مساحات شاسعة للعب ونحن حُفاة، أحد تلك البيوت صار ذاكرة، فمكان المطبخ كان جدارا نستند عليه بعد التعب من الجري خلف بعضنا، مكان الباب الخلفي كان يُربط حمار متدرج باللون الرمادي، بيع عام ١٩٩٨ لتاجر حمير من بلدة عبوين، غرفة الأطفال مكان إصلاح دراجات أولاد البلد، غرفة الضيوف مكان كرسي خشبي كانت تجلس عليه عجوز تظل طوال اليوم تنادي علينا وتسألنا: انت ابن مين يا ولد؟ أرد: انا ابن رحاب.

على طرف الحارة، تتدلى وردة عن سور بيت مهجور، يقطف منها الأولاد والبنات في طريقهم للمدرسة، حاجتهم ليعيشوا أجواء الحب الطفولي.

البيت يعود لعزية العجوز الوحيدة، التي ماتت في منتصف عام ٢٠٠٢، تاركة خلفها وردة يبدأ منها كل صغار الحارة حبهم الأول.

في صغري كُنت منهم، قطفت وردة بيضاء، ولم أجرؤ على تقديمها لأحد. قبل مدة سألت صبية من حارتنا: هل قطفت وردة من عند عزية في صغرك؟ ردت: قطفتها مرة ولم أقدمها لأحد.

قلت: وكأن الوردة مفتاح حياتنا الزوجية، من لم يقطف ويُهدي منها، ظل وحيداً.

اشتقت لآسيا الصادقة، وأنا أرتب الكتب والصحف والمقالات المطبوعة، رأيت طرف ورقة في كتاب قديم، كان اسمك، موقعة بتاريخ ٢٩-٤-٢٠١٣، وتحوي كلمة يتيمة: أحبك.

عادتك أن توقعي أسفل الرسالة باسمك، بينما كانت عادتي أن أوقع باسمي أعلاها، وربما هو الاختلاف الوحيد بيننا، فكل ما كان بعد اسمي هو أنتِ وتفاصيلنا، وكل ما كان قبل اسمك هو أنا وتفاصيلنا.

توقفت منذ فترة جيدة عن نبش الماضي، لكنني لا أصُد ما يتدحرج من تلقاء نفسه، ففي ذلك إشارة ما، غالبًا ما تكون: ما زلت أتذكرك.

آسيا، أفكر بزيارة بيتكم الآن، أقفز على السطح كما يفعل الجنود في آخر الليل، أصرخ على نوافذكم، أطردكم إلى الخارج، وأُبقي واحداً يدور معي الغرف كما يفعل قائد الاقتحام، أُخرب أثاثكم، أقلب الخزائن الصغيرة بأشيائها، أكسر صحونا، ومزهرية الزاوية في صالة الضيوف، أجلس على تختك أُقلب ألبومات الصور الشخصية.

وأغادر حزينا ومهزوما وغاضبا كما يفعل الجنود حين لا يعثرون على ما يبحثون عنه.

هل رأيتِ وجوههم يوماً حين يعودون من مهمة فاشلة!

أنا الذي يطالبك كل ليلة بأن تطلقي سراحه، وتحرري يديه من قيد اللحاق بك، وأن لا يقتحم حبك قلبه في مثل هذه الأوقات المتأخرة من الليل.

في مقاهي بيرزيت التي تبدلت، وصارت أشياء أخرى، صار حبك.

يوم سقط رمشك بفنجان القهوة، بللني الحب.

لم أفرط يوماً بدفاتري الجامعية، رغم عدم اقتناعي بكل ما كتبته فيها، وعلاقتي العادية مع سنوات الدراسة تلك. وأنا أرتب تلك الدفاتر الميتة رحت أفتح بعضها بطريقة سريعة، رأيت خط سناء على الصفحة الأخيرة في دفتر يعود للعام ٢٠١٠، هذه أول مرة اقرأ:

«أتاري البعد عنك خلاني حتة منك، والناس مستغربين على إيه مستغربين على إيه». عايزة معجزة / وردة الجزائرية ١٥-٢-٢٠١٠.

الآن استمع للأغنية، وأراكِ. أرى يديك تسرق دفتري وتكتب أجزاء منها.

سناء، هذا الجوع الواضح لكِ، لا يجد ما يأكله.

من يفارقُ امرأةً مثلُكْ، يفتحُ شُباكهُ كل يوم بحثاً عنكِ، مع أنكِ لا تعيشين في مدينتهْ، ولا يُعقل أن تمُري مرةً جوار بيتهْ، فقط هو الحب، إن كنتِ عرفتِه يوما.

أحب الذهاب الى الخليل، لكن طريق العودة المرهق يجعلني لا أزورها في السنة إلا مرتين، لسنوات طويلة كانت الأزمة الأكبر في الضفة أزمة قلنديا، دائما يذكرها الناس بمقولة: أزمة قلنديا ملهاش حل. لكن الناس لا تقع جميعها في أزمة العيزرية، إنها أزمة ملعونة، تذكر قليلا بأزمة حوارة، لكن الأخيرة مقدور عليها وغالبا ما تنتهي بسرعة، في العيزرية تطلع لك السيارات من كل مكان لتجدها فجأة في وجهك، تطلق الزامور من خلفك -لكن إلى أين تتقدم- ، تحاشرك، عن يمينك ويسارك، لا تعطيك المجال للتقدم للأمام، تعكر مزاجك المعكر وسط هذا الزحام الميؤوس من انفراجه. وأنت وسط هذا الزحام المخيف، وكأن الكل يريد أن يرحل من هذه المنطقة، الكل يريد الخروج بسرعة والوصول، لا تدري إلى أين، لكنك مثلهم تود لو أن سيارتك تطير.

في فلسطين لا بد أن يسألك السائق من أين أنت؟ ولا بد أن يعرف أحدا من بلدك، حتى لو اخترع ذلك الشخص اختراعًا! إن عجز فسيقول لك أنه أوصل أحد أبناء بلدك ذات ليلة بعدما وجده في طريق مقطوعة، وأنه نسي اسمه لكنه نحيف وأسمر. هكذا هم سائقو المركبات العمومية.

في أزمة العيزرية، تلتقي بعيون المخنوقين والشاتمين واللاعنين والطالعين عن دينهم والكاظمين الغيظ، تلتقي بكل أمزجة الناس في أقل من ستة أمتار عن حدك وخلفك وأمامك، ولو كان بالإمكان لطارت مركبة عن فوقك!

بعد مرور أربعين دقيقة من وجودي في وسط الأزمة، تتخطى مركبة عمومية المركبة الخاصة التي على يسارنا وتحشر نفسها مكانها، ولأن لا شيء تفعله سوى متابعة تفاصيل كل مركبة وكل انسان فيها او يمر من الشارع وفي حال مللتهم تعود لقراءة يافطات

المحال التجارية مرة عاشرة! في المركبة التي صارت جارا جديدا، لمحت فتاة بمنديل أحمر تجلس إلى جانب السائق الذي بدا في نهاية الأربعينيات، تبدو عن هذه المسافة صبية شهية وحلوة، شيء ما منها وصل، لا أدري كيف، وكأنني دققت فيها من قبل وأعرف تفاصيلها، وأنها حلوة زيادة وناعمة وقادرة على أن يحبها المرء منذ التحية الاولى، هكذا فكرت بها وحدثت نفسي، ورحت أخترع لنا مقهى في مدينة لا يعنيها من نكون، مدينة تقول: أهلا بالحب. وتكتفي بتركنا وحدنا، لجنون لا يُعاش مرتين، عادي وقليل لا يغير في شكل المدينة ولا يُنقص من وطنيتها، كأن ألمس يدها لأول مرة، وأن تقول لي لأول مرة: لا تنظر إلي هكذا. ثم تخفض وجهها خجلًا. إنني مولع للغاية بهذا النوع من الجنون البسيط! إنه يصنعني، انسانا وكاتبا وعاشقا، يصنع ذاكرتي.

رجة تبدأ خفيفة سرعان ما تنقلب إلى رجات ثقيلة، إنها المركبة خرجت فوق جزيرة دوار العيزرية مشت ثوانيَ في خط مستقيم قبل أن تهبط مرة اخرى الى الشارع لتفادي الفوضى والتداخل العشوائي على الدوار.. رجة اسقطت من حضني كتاب «بعدك على بالي» لطلال شتوي، أهدتني اياه صبية من الخليل، كانت لطيفة جدا معي، لكنني لم أحبها كما رغبت، فظلت علاقتنا طيبة، تهديني كتباً وأهديها كلمات تواسيها لحظة حزن. تقول إنها كانت تجدني كلما نادت باسمي، وهذا أقصى ما يستطيع المرء تقديمه في علاقة. أن يُنادى عليك فتحضر.

يامن نوباني

من الكتاب

لا أعرف كيف كنت أتنقل في الحديث معك، من أغنيات تلهب الثورة وتجعلها قوية، إلى أغنيات تلهب الحب، وتجعله مدوياً. من «وقفوا صفوف صفوفِ»، الأغنية الوحيدة التي تبكيني، إلى «زغردي يا أم الجدايل»، التي تَرسُم فيَّ كل أمهات الشهداء وهن يودعن أولادهن، إلى «رمانة» حيث يذهب بي سميح شقير إلى شوارع بيروت والكلاشنكوف، لكن واحدة منهن لم تستطع أن تقتحمني كما فعلت «وقفوا صفوف صفوفِ»، التي كتبها ابراهيم المزين في استشهاد موسى حنفي عام 1987 وغناها عبد المنعم عدوان، هذه الأغنية تحرك ما بعد الدمع!
يقف عبد المنعم عدوان على المسرح، ويغني:

وقفوا صفوف صفوفِ، وسحجوا على الكفوفِ
إجت إمو، يا عزيزة يا مغندره، يا دمعه يا سكرة
عريسنا مبدر عَ وين، عريسنا بِغَفي العين
إمو ردي يا إمو ليش الورد ملثم ع ثمه
والحديد على كتفو ما همو ما همو
مع الندى طالع، طالع لحالو، يا بنات قزولوا خواله تَ يلفو يلمو جماله